عذر اللّه[١] وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : بينا النّبىّ ﷺ يصلّى العشاء إذ قال : سمع اللّه لمن حمده ، ثمّ قال قبل أن يسجد :اللّهمّ نجّ عيّاش بن أبى ربيعة ، اللّهمّ نجّ سَلَمة بن هشام ، اللّهمّ نجّ الوليد بن الوليد ، اللّهم نجّ المستضعفين من المؤمنين ، اللّهمّ اشدد وطأتك على مُضَر ، اللّهمّ اجعلها سنين كسنى يوسف[٢] وعن أبى هريرة أنّ رسول اللّه ﷺ رفع يده بعد ما سلّم وهو مستقبل القبلة فقال : اللّهمّ خلّص الوليد بن الوليد ، وعيّاش بن أبى ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الّذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً من أيدى الكفّار[٣].

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ أولئك المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان عسى اللّه أن يعفو عنهم ذنوبهم . وعسى من اللّه تعالى موجبة[٤] ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل عسى الّتى تكون للتّرجّى فى المحبوب مع العفو . والعفو بمعنى التّرك ، والعفو عفو اللّه تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلاً منه . قال الخليل : وكلّ من استحقّ عقوبةً فتركته فقد عفوتَ عنه ، يقال : عفا عنه يعفو عفوا[٥] قال تعالى : ﴿ فأولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم ﴾ .

وحينما يستعمل صدر الآية الكريمة العفو ، ويقرن العجز أو التّذييل بين العفو والغفران وذلك فى القول : ﴿ وكان اللّه عفواً غفوراً ﴾ فإنّا بحاجة إلى أنّ نقف على معنى الغفران بعد أن وقفنا على معنى العفو وأن نقف على الفرق بينهما وعلى ما يمكن أن يفهم من وقوف الصّدر عند العفو . «قال الرّاغب : العفو إزالة الذّنب بترك عقوبته . والغفران ستر الذّنب وإظهار الإحسان بدله»[٦]ويقول الرّاغب أيضاً[٧] : « والغفران والمغفرة من اللّه هو أن يصون

(١،٢) صحيح البخارىّ ٦/ ٦١ . (٣،٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٢ .

(٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس «عفو» ٤/ ٥٦.

(٦) البحر المحيط ٢/ ٣٧٠.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى «غفر» ٣٦٢.

العبد من أن يمسّه العذاب » ويقول ابن فارس[١] : « الغين والفاء والرّاء عُظْم بابه السَّتر . . . فالغفر : السَّتر . والغُفْران والغَفْر بمعنى . يقال : غفر اللّه ذنبه غَفْراً ومغفرة وغُفْرانًا».

أمّا وقد تبيّن أنّ العفو يقف عند ترك المؤاخذة على الذّنب وأنّ المغفرة تتجاوز التّرك إلى سَتْر الذّنب ، فما الّذى يمكن أن يُفْهَمَ من وقوف صدر الآية الكريمة بشأن المستضعفين الّذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا عند العفو بمعنى ترك المؤاخذة عن الذنب؟ يصحّ أن يفهم أنّ الوقوف عند ترك المؤاخذة فى مقابل وقوف المستضعفين عن الهجرة. ووراء ذلك فإنّ اللّه سبحانه وتعالى هو العفوّ الغفور. فكما شمل اللّه تعالى بعفوه أولئك المستضعفين، يصحّ أن يشملهم بفضل اللّه تعالى غفرانه فلا معقّب لحكمه جلّ وعلا ولا رادّ لقضائه .

وإذا كان هنالك من وقف عن الهجرة اختياراً أو اضطراراً ، فإنّ كلاً من الفريقين قد فاته خيرٌ كثير فى الأولى والآخرة، وإلى ذلك أشارت .

الآية رقم (١٠٠)

قال تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

سبب النّزول :

عن ابن عبّاس رضى اللّه تعالى عنهما قال : خرج ضمرة بن جندب إلى رسول اللّه ﷺ فمات فى الطّريق قبل أن يصل إلى رسول اللّه ﷺ فنزلت : ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله . الآية[٢] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة «غفر» ٤/ ٣٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣ وانظر النّزول للواحدى ٢٠٨ تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٥١.

أسباب

مع أنّ الآية الكريمة ، كما يبدو من سبب النّزول ، نزلت فى أناسٍ معيّنين ، فإنّ العبرة وراء ذلك بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . إنّ الآية الكريمة تبيّن الحياة الطّيبة للمهاجر فى الأولى وفى الآخرة .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتألّف من شقّين اثنين ، يتحدّث أحدهما عن الّذى يهاجر فى سبيل اللّه تعالى ، والّذى سوف يجد بإذن اللّه تعالى السّبل المذلّلة والفرص الميسّرة ، وذلك فى القول : ﴿ ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ويتحدّث آخرهما عن الّذى خرج مهاجراً فى سبيل اللّه تعالى واخترمته المنيّة فى الطّريق فقد ثبت أجره على اللّه تعالى وذلك فى القول : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه . وكان اللّه غفوراً رحيما ﴾ ومن البيّن ارتباط التّذييل بالشّقّ الآخر.

ونحن نودّ أن نسير مع كلّ جزئيّة على حدّة ، فمع الجزئيّة الأولى. قال تعالى : ﴿ومن يهاجر فى سبيل اللّه يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ إنّ ربّ العزّة يعد ، ووعده الحقّ ، بأنّ من يهاجر فى سبيل اللّه تعالى ، ومن يترك دار الكفر الّتى لا يستطيع أن يمارس فيها تعاليم الإسلام بحريّة كاملة ، إلى ديار الإسلام ، فإنه سوف يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة . وتشترط الآية الكريمة أن تكون الهجرة فى سبيل اللّه تعالى وليس فى سبيل أىّ غرض آخر من أغراض الدّنيا . ثبت فى الصّحيحين وغيرهما من الصّحاح والمسانيد والسّنن عن عمر بن الخطّاب قال : قال رسول اللّه ص : إنّما الأعمال بالنّيّات وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[1].

إنّ ربّ العزّة يعد الّذى يهاجر فى سبيله جلّ وعلا وابتغاء مرضاته بأنّه

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣ .

سوف يجد بإذن اللّه تعالى فى الأرض ، أرض اللّه تعالى الواسعة العريضة ، مراغماً كثيراً وسعة. ومن الجائز ألاّ يجد المهاجر الوعد قد تحقّق فى أوّل أرض تحوّل إليها ، فإنّ عليه فى هذه الحال أن يجتهد فى البحث عن الأرض الأخرى، أو الثّالثة الّتى سوف يتحقّق فيها بصفة أكيدة وعد اللّه تعالى الّذى لا يتخلف ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ اللّه لمع المحسنين ﴾ .

والجزئيّة الكريمة تصف طريق الهجرة بالقول «مراغماً كثيرا» وتصف المهاجَر ومستقر المهاجِر بالقول : «وسعة» وإنّ كلاً من القولين بحاجة منّا إلى نقف عنده قليلا .

فما معنى القول «مراغماً كثيرا» فى حقّ طريق الهجرة ؟ حينما نستشير المعاجم بشأن المراغم نصادف على سبيل المثال فى لسان العرب[2] مثل هذا القول : «والمراغَم : السّعة والمضطَرب ، وقيل : المذهب والمهرب في الأرض. وقال أبو إسحاق فى قوله تعالى : يجد فى الأرض مراغمًا ، معنى مراغَمًا مهاجَراً ، المعنى يجدْ فى الأرض مهاجَراً لأن المهاجِر لقومه والمراغِم بمنزلةٍ واحدة وإن اختلف اللّفظان وأنشد:

إلى بلدٍ غير دانى المحـــلّ بعيد المراغَم والمضطربْ

قال : وهو مأخوذ من الرَّغام وهو التّراب ، وقيل :مراغَمًا مضطربا».

ونحن من جانبنا نودّ أن نرسل بدلونا ضمن الدّلاء من أجل محاولة تبيين معنى القول : «مراغماً كثيراً» واللّه سبحانه وتعالى المستعان.

إنّه بالرّجوع إلى معاجم اللّغة وقراءتها بتؤده يتبيّن أنّ لفظةً بعينها «الرَّغم» لها وزنها ولها معانيها المختلفة ولها قدرتها على وضع بصمتها على الكثير من الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ «رغم» علماً بأنّ لفظة الرغم بتثليث الرّاء ،

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

(٢) «رغم» .

من معانيها الكُره والهوان والذّلّ والتّراب والانقياد والقسر والغضب والخضوع والسُّخط والكِبْر. ونكتفى بذكر بعض الاقتباسات من لسان العرب : «الرَّغم والرُّغم والرُّغم : الكَرْه ... ابن الأعرابى : الرَّغم التراب ، والرّغم الذّلّ ، والرّغم القَسْر . قال : وفى الحديث وإن رَغَمَ أنفه أى ذلّ ، رواه بفتح الغين ... وفى حديث مَعْقِل بن يَسار : رَغِمَ أنفى لأمر اللّه أى ذلّ وانقاد ... وفى الحديث : إذا صلّى أحدكم فليُلْزم جبهته وأنفه الأرض حتّى يخرج منه الرَّغْم ، معناه حتّى يخضع ويذلّ ويخرج منه كِبْر الشّيطان ، وتقول : فعلت ذلك على الرَّغم من أنفه ... والمَرْغَم والمَرْغِم : الأنف ... وفى الحديث أنّه عليه السّلام قال : رَغِمَ أنفه ثلاثًا ، قيل مَنْ يا رسول اللّه ؟ قال من أدرك أبويه أو أحدهما حيًا ولم يدخل الجنّة . يقال : أرغم اللّه أنفه أى ألزقه بالرَّغام، وهو التّراب ، هذا هو الأصل ، ثمّ استعمل فى الذّلّ والعجز عن الانتصاف والانقياد على كُره. وفى الحديث : وإن رغم أنف أبى الدّرداء أي وإن ذلّ ، وقيل : وإن كره ... وفى حديث أسماء : إنّ أمّى قدِمَتْ علىّ راغمةً مشركةً أفأصلُها ؟ قال نعم . لمّا كان العاجز الذّليل لا يخلو من غضب قالوا : تَرَغَّم إذا غَضِب ، وراغمةً أى غاضبة ... ورغّم فلانٌ أنفه خضع. وأرغمه : حملهَ على ما لا يقدر أن يمتنع منه ... وقيل : أرغمه أسخطه ... والرَّغام : الثّرى . والرَّغام بالفتح التّراب ، وقيل: التّراب اللّيّن وليس بالدّقيق ... أبو عمرو : الرّغام دُقاق التّراب ومنه يقال : أرْغمتُه أى أهنته وألزقته بالتّراب . حكى ابن برّى قال : قال أبو عمرو .. الرَّغام رمل يغشى البصر...وأرغم اللّه أنفه ورغّمه ألزقه بالرَّغام ... ورغم الأنف نفسه : لزق بالرَّغام».

من النّصوص المستفيضة السّابقة يتبيّن أن الرّغم بمعانيه المختلفة يرتبط به لفظٌ من أصل المادّة وهو الرّغام بمعنى التّراب الدقيق[1] والتّراب بأنواعه مَوْطِئ الأقدام ، وكفاه ذلك ذلاً . ولفظ آخر من غير هذه المادّة وهو لفظ أنف ،

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى «رغم» ١٩٩ .

وأصل الأنف الجارحة ثمّ يسمّى به طرف الشّئ وأشرفه فيقال : أنف الجبل ونُسِب الحميّة والغضب والعزّة والذّلّة إلى الأنف حتّى قال الشّاعر :

إذا غَضِبتْ تلك الأنوف لَمُ ارْضِها ولم أطلُب العُتْبى ولكن أزيدها

وقيل : شَمَخ فلانٌ بأنفه للمتكبرّ ، وترب أنفه للذّليل ، وأنفَ فلانٌ من كذا بمعنى استنكف ، وأنَفْتُه أصبتُ أنفه . وحتّى قيل : الأنَفَة الحميّة(١).

ومن البيّن أنّ القول هنا : ترب أنفه ، بمعنى القول هنالك رغم أنفه ، لأنّ الرّغام هو التّراب كما عرفنا .

وإنّا لنتساءل : وكيف تمّ الجمع فى قَرَن وحبل بين الأنف الّذى يمثّل منتهى العزّ وبين الرّغام الّذى يمثّل منتهى الذّلّ ؟ والجواب على ذلك أنّه لمّا كان المقصود التّنبيه إلى الذّلّ الّذى حلّ بالمغلوب على أمره المقهور الإرادة رغمًا عنه، لذا كان الجمع بين الأنف وبين الرّغام أو التراب ، بين الأنف الّذى يمثّل العزّة والشّمم أصلاً ، وبين التّراب الّذى يمثّل الذّلّ والهوان . وكأن مثل هذا التّعبير : رغم أنف فلان ، يوحى بمعانى الذّلّ والهوان والقسر والانقياد والخضوع ، الّتى حلّت به وأذلّت كبرياءه ، وينبغى أن يقترن بذلك شئٌ غير قليل من الغضب والسُّخْط. ومعروفٌ أنّ هذه كلّها من معانى الرّغم . وإنّما حدث كلّ ذلك بسبب الرّغام الذى لُطِّخ به أنف صاحبه . ومعروفٌ أنّ ذلك إنّما يكون وليد وضع ذلك الأنف رمز العزّة والأنفة فى الرّغام رمز الذّلّ والصّغار.

وبعد هذه الجولة الواسعة مع المادّة اللّغوية «رغم» واستعمال ما يفيدنا منها من مشتقّات نافعة لنا فى سبيل الوصول إلى غايتنا ، نستطيع أن نعود إلى المراغم الكثير فى قوله تعالى : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل اللّه يجد فى الأرض مراغمًا كثيراً وسعة﴾ ونستطيع بشأن المراغم الكثير أن نقول إنّه ذو علاقة وثيقة بالمادّة اللّغويّة «رغم» ومعانيها ، وبالاستعمال المشهور على جهة الخصوص

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى «أنف» ٢٨ .

«رغم أنف فلان» وبهذا يكون المراغَم ذا شقّين اثنين ، شقٌّ يتعلق بالمهاجر الّذى هاجر الآن ، وآخر بالّذين ساموه الخسف وظلموه ومنعوه من أن ينال شيئاً من حقوقه وبخاصّة الدّينيّة منها . أمّا الشّقّ الّذى يخصّ المهاجر فى سبيل اللّه تعالى فإنّه يجد الآن مراغماً كثيراً ، مذهباً فى الأرض ومضطرباً فيها ، إن كان حاله أقرب إلى الأمن والطّمأنينة ، ومهرباً فى الأرض ، إن كان حاله أقرب إلى الخوف وعدم الطّمأنينة . وفى كلّ الأحوال هو يصادف طرقاً مختلفة وسبلاً متعدّدة . وأمّا الشّقّ الّذى يخصّ من راغمهم وخاصمهم وفارقهم بسبب ظلمهم للمهاجر ، فإنّه يصحّ التّعبير عنه بالقول : إنّ المهاجر الّذى يطأ فى طريقه التّراب ويثير الغبار ويغادر دار الكفر رغماً عن أهلها بمنزلة من يضع أنوف أولئك الظّالمين فى الرّغام ، ويذلّ معاطسهم بوضعها فى التّراب . وكأن المهاجر لا يطأ فى الحقيقة التّراب وحده ولكنّه يطأ كذلك أنوف أولئك الظّالمين الّتى يلطخها الرّغام ويلُفّها دقيق التّراب أو صفيقه .

ومن البيّن أنّ المراغم يوصف بأنّه كثير ، وكأنّ المهاجر بعدد مرّات وطئه الأرض يضع أنف عدوّه فى الرّغام .

وإذا كان المراغم الكثير متعلّقاً بالسّبيل والطّريق والمذهب ، فإنّ السّعة تتعلّق بالغاية الحميدة ، والأرض الجديدة ، والسّعة السّعيدة . قال تعالى : ﴿ومن يهاجر فى سبيل اللّه يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ إنّ كلّ ضيق صادفه المستضعف فى بلاد الكفر سيقابله بإذن اللّه تعالى وبناءً على وعده جلّ وعلا سعةٌ فى كلّ شئ . سعةٌ فى حرّيّة الحركة ، والعمل ، والتّصرّف ، والعبادة ، والرّزق ، وما إلى ذلك . ومن البيّن أنّ أهمّ ميادين السّعة عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له . إنّه بقدر الضّيق فى بلاد الكفر ، تكون السّعة فى بلاد الإسلام وللّه وحده لا شريك له الحمد والمنّة .

وهذا هو الجزء من الآية الكريمة الّذى يتعلّق بالمهاجر الّذى اخترمته المنيّة فى الطّريق . قال تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثمّ

يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه وكان اللّه غفوراً رحيماً ﴾ .

إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ من يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه تعالى وإلى رسوله محمّد بن عبد اللّه ﷺ ثمّ يدركه الموت فقد ثبت أجره على اللّه تعالى وإن لم يصل إلى مهاجَره لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذى اصطفاه إلى جواره. ويلفت النّظر هنا استعمال جملة «يخرج» إنّ مجرّد الخروج من البيت بقصد الهجرة وتحويل النّيّة فى مغادرة بلاد الكفر إلى عمل يتحقّق به الأجر إن شاء اللّه تعالى . وانظر إلى لفظة بيت الّتى تستعملها الجزئيّة الكريمة والّتى تذكّرنا بما جاء فى الآية الكريمة الحادية والثّمانين من هذه السّورة الكريمة فى حقّ المنافقين الّذين يبيّتون ليلاً وفى الظّلام غير الّذى قالوا نهاراً وأعلنوا للنّبىّ ص من طاعة . إنّ البيت يدلّ على مكان البيتوتة والإقامة ليلاً . وكأنّ لفظ بيت الّذى يحفّ به الظّلام ويلفّه ، خادمٌ لهدف المهاجر على نجاح مهمّته لذا هو يشرع فى تنفيذها فى تلك الفترة من الظّلام الدّامس واللّيل الحالك .

وإذا كنّا نفهم من القول : ﴿ ومن يخرج من بيته ﴾ أنّ مجرّد الخروج من البيت يثبت به الأجر عند اللّه تعالى دون انتظار للخروج من القرية أو البلدة أو الدّيار أو ما أشبه ذلك ، فإنّا نفهم من استعمال حرف العطف «ثمّ» الدّالّ على التّعقيب مع التّراخى فى القول : «ثمّ يدركه الموت» أنّ هذا الأجر ثابتٌ بفضل اللّه تعالى لمن اخترمته المنيّة فى طريق هجرته إلى اللّه تعالى ، وفى أىّ موضع من ذلك الطّريق ، وأىّ مرحلة من مراحله . ومن المعروف أنّ الآية الكريمة نزلت فى الّذين يُتَوفَّوْن قبل أن يصلوا إلى مهاجَرهم ، ويخصّهم هذا القسم من الآية الكريمة . وتقرّر الآية الكريمة فى ختامها : ﴿ وكان اللّه غفوراً رحيما ﴾ أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الغفور الرّحيم دائماً وأبدا .

وحينما نتبيّن أنّ السّياق ذكر العفو مرّة، وقرن بين العفو والمغفرة أخرى وذلك فى القول : ﴿ فأولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم . وكان اللّه عفوّاً غفوراً﴾ وقرن بين المغفرة والرّحمة مرّة ثالثة وذلك فى القول : ﴿ وكان اللّه

غفوراً رحيما ﴾ فإنّ ذلك يلفت نظرنا إلى شمول فضل اللّه تعالى وزيادته المطّردة.

لقد عرفنا العفو بأنّه ترك المؤاخذة على الذّنب ، وعرفنا المغفرة بأنّها ترك المؤاخذة على الذّنب وستره ، وها هى ذى رحمة البّر الرّحيم تتجاوز العفو والمغفرة وتخصّ يوم القيامة عباده المؤمنين وقد قال تعالى(١) : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ وإنّ شمول فضل اللّه تعالى هنا يذكّرنا بالدّعاء الّذى لقّننا ربّ العزّة إياه فى ختام سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا علي القوم الكافرين ﴾ .

ولمّا كان الّذى يضرب فى الأرض مجاهداً فى سبيل اللّه تعالى أو مهاجراً فى سبيل اللّه تعالى يخاف فتنة الّذين كفروا عن الصّلاة ، وكانت الصّلاة عماد الدّين ، فقد تحوّل الحديث إلى هذه الأمور فإلى .

الآية رقم (١٠١)

قال تعالى :

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

تخاطب الآية الكريمة المسلمين المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى وتقول لهم : إذا ضربتم أيّها المؤمنون فى الأرض وأوغلتم فيها مسافرين ، فليس عليكم جناحٌ ولا إثمٌ ولا حرج، أن تقصروا من الصّلاة الرّباعيّة فتؤدوها ركعتين اثنتين، إن خفتم أيّها المؤمنون أن يفتنكم الّذين كفروا « يعنى إن خشيتم أن يفتنكم الّذين كفروا فى صلاتكم ، وفتنتهم إيّاهم فيها حملهم عليهم وهم فيها

(١) سورة الأحزاب ٤٣ .

ساجدون حتّى يقتلوهم أو يأسروهم فيمنعوهم من إقامتها وأدائها ، ويحولوا بينهم وبين عبادة اللّه وإخلاص التّوحيد له»[١] وتقرّر الآية الكريمة فى التّذييل أنّ الكافرين كانوا دائماً وأبداً عدواً واضح العداوة بيّنها للمؤمنين. قال تعالى : ﴿ إنّ الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾.

وبشأن هذا الحكم فى الصّلاة نودّ أن نقتبس بعض الفوائد .

فى صحيح مسلم عن ابن عبّاس قال : فرض اللّه الصّلاة على لسان نبيكم ﷺ فى الحَضَر أربعاً ، وفى السّفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة[٢].

ومشهور مذهب الإمام مالك وجلّ أصحابه وأكثر العلماء من السّلف والخلف أنّ القصر سنّة ، هو قول الشّافعى ، وهو الصّحيح[٣] .

وقال الشّافعى القصر فى غير الخوف بالسّنّة ، وأمّا فى الخوف مع السّفر فبالقرآن والسّنّة ، ومن صلّى أربعاً فلا شئ عليه ، ولا أحبّ لأحد أن يتمّ فى السّفر رغبةً عن السّنّة[٤] وقصر رسول اللّه ﷺ من أربع إلى اثنتين إلا المغرب فى أسفاره كلّها آمنا لا يخاف إلا اللّه تعالى ، فكان ذلك سنّة مسنونة منه ﷺ زيادةً فى أحكام اللّه تعالى كسائر ما سنّه وبيّنه ممّا ليس له فى القرآن ذكر[٥] وسأل عمر رسول اللّه ﷺ عن القصر فى السّفر من غير خوف فقال : تلك صدقةٌ تصدّق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته[٦] وقال يَعْلَى بن أميّة لعمر : ما لنا نقصر وقد أمنّا . فقال عمر: عجبتُ ممّا عجبت منه فسألت رسوله اللّه ﷺ عن ذلك فقال : صدقةٌ تصدّق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته[٧] وقوله تعالى : ﴿ إن خفتم ﴾ خرج الكلام على الغالب ، إذ كان الغالب على المسلمين الخوف في الأسفار[٨] .

---

(١) تفسير الطبرىّ ٥/ ١٥٤ .
(٢) تفسير القرطبىّ ١٩٣٠ ، ١٩٢٢ .
(٣) تفسير القرطبىّ ١٩٢٢ .
(٤) تفسير القرطبىّ ١٩٢٢ .
(٥) تفسير القرطبىّ ١٩٢٣ .
(٦) تفسير القرطبىّ ١٩٢٣ .
(٧) تفسير القرطبىّ ١٩٣١ .
(٨) تفسير القرطبىّ ١٩٣١ .

واختلف العلماء فى حدّ المسافة الّتى تقصر فيها الصّلاة[١] واختلفوا فى نوع السّفر الّذى تُقْصَرُ فيه الصّلاة ، فأجمع النّاس على الجهاد والحجّ والعمرة وما ضارعها من صلة رحم وإحياء نفس . واختلفوا فيما سوى ذلك ، فالجمهور على جواز القصر فى السّفر المباح كالتّجارة ونحوها[٢] والجمهور من العلماء على أنّه لا قصر فى سفر المعصية ، كالباغى وقاطع الطّريق وما فى معناهما[٣] .

وذكر اللّه تعالى القصر بشرطين[٤] وهما شرطان غالبان إذ كان الغالب علي المسلمين الخوف فى الأسفار كما تقرّر من قبل ، فلا يعتبر فى صلاة الخوف الشّرطان ، فإنّه لو لم يُضْرَب فى الأرض ولم يوجد السفر بل جاءنا الكفّار وغزونا فى بلادنا فتجوز صلاة الخوف[٥] .

والآية الكريمة التّالية فى بيان إحدى كيفيّات[٦] صلاة الخوف فإلى.

الآية رقم (١٠٢)

قال تعالى :

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٩٢٣ .
(٢) تفسير القرطبىّ ١٩٢٥ .
(٣) تفسير القرطبىّ ١٩٢٦ .
(٤، ٥) تفسير القرطبىّ ١٩٣١ .
(٦) تفسير القرطبىّ ١٩٣٩ ، وتفسير ابن كثير ١/٥٤٦ .

سبب النّزول :

عن ابن عبّاس قال : خرج رسول اللّه ﷺ، فلقى المشركين بِعُسْفان، فلمّا صلّى رسول اللّه ﷺ الظّهر فرأوه يركع ويسجد هو وأصحابه ، قال بعضهم لبعض : كان هذا فرصةً لكم ، لو أغرتم عليهم ما علموا بكم حتّى تواقعوهم . فقال قائلٌ منهم : فإنّ لهم صلاةً أخرى هى أحبّ إليهم من أهليهم وأموالهم فاستعدّوا حتّى تغيروا عليهم فيها ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى على نبيّه الآية الكريمة وأعلم ما ائتمر به المشركون وذكر صلاة الخوف(١) .

يقول ابن كثير(٢) رحمه اللّه تعالى رحمةً واسعة: « صلاة الخوف أنواعٌ كثيرة ، فإنّ العدوّ تارةً يكون تجاه القبلة ، وتارةً يكون فى غير صوبها ، والصّلاة تكون رباعيّة ، وتارةً تكون ثلاثيّة كالمغرب، وتارةً تكون ثنائيّة كالصّبح وصلاة السّفر . ثمّ تارةً يصلّون جماعةً ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلّون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ، ورجالاً وركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه ، ويضربوا الضّرب المتتابع فى متن الصّلاة ».

قال الخطّابىّ : صلاة الخوف أنواعٌ صلاّها النّبىّ ﷺ فى أيام مختلفة ، وأشكال متباينة ، يتوخىّ فيها كلّها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ للحراسة(٣).

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره(٤) على سبيل المثال أربع صورٍ لصّلاة النّبىّ ﷺ لصلاة الخوف.

ولمّا كانت الآية الكريمة تصف صلاة الخوف حينما يستدبر المسلمون القبلة، وكانت صلاة الخوف تحين كذلك حينما يكون المسلمون مستقبلى القبلة

---

(١) انظر أسباب النّزول للواحدى ٢١٠ ، ٢٠٩ وتفسير القرطبى ١٩٣٤ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٦٤ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٤٨ وتفسير ابن عطية ٤/ ٢٠٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٦ وانظر تفسير ابن عطيّة ٤/ ٢١٢ فى عدد صفات صلاة الخوف.

(٣) تفسير القرطبىّ ١٩٣٩ .

(٤) ١/ ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

فإنّا نودّ أن نتحدّث عن كلٍّ من الصّلاتين. يقول القرطبى[١] رحمه الله تعالى رحمةً واسعة: «وهذه الصّلاة المذكورة فى القرآن إنّما يُحتاج إليها والمسلمون مستدبرون القبلة ووجه العدوّ القبلة. وما ذكرناه من سبب النّزول فى قصّة خالد بن الوليد لا يلائم تفريق القوم إلى طائفتين، فإنّ فى الحديث بعد قوله : فأقمت لهم الصّلاة ، قال : فحضرت الصّلاة فأمرهم النّبىّ ﷺ أن يأخذوا السّلاح وصفّنا خلفه صفّين ، قال : ثمّ ركع فركعنا جميعاً ، قال : ثمّ رفع فرفعنا جميعاً . قال : ثمّ سجد النّبىّ ﷺ بالصّفّ الّذى يليه ، قال : والآخرون قيامٌ يحرسونهم ، فلمّا سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا مكانهم ، قال ثمّ تقدّم هؤلاء فى مصافّ هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء، قال : ثمّ ركع فركعوا جميعاً ، ثمّ رفع فرفعوا جميعاً ، ثمّ سجد النّبىّ ﷺ والصّف الّذى يليه، والآخرون قيام يحرسونهم ، فلمّا جلس الآخرون سجدوا ثمّ سلّم عليهم . قال : فصلاّها رسول الله ﷺ مرّتين ، مرّةً بِعُسْفان ومرّةً فى أرض بنى سليم. وأخرجه أبو داود من حديث أبى عيّاش الزُّرَقىّ وقال : وهو قول الثّورىّ وهو أحوطها . وأخرجه أبو عيسى التّرمذىّ من حديث أبى هريرة. .».

وهذه هى الصّفة الأخرى لصلاة الخوف حينما يكون العدوّ مستقبل القبلة وهى الصّلاة الّتى جاء ذكرها فى الآية الكريمة . ومن البيّن أنّ العدوّ حينما يكون مستقبل القبلة ويكون المسلمون مستدبريها يكون المسلمون بحاجة إلى أخذ حذرهم وأسلحتهم ساعة أداء الصّلاة بأكثر من الحالة الأولى الّتى يكونون معها مستقبلى القبلة ، لأنّ اتّجاه جميع المسلمين السّاجدين والحارسين إلى القبلة والعدوّ معا . وربّماكان وصف الآية الكريمة صلاة الخوف حال استدبار المسلمين القبلة من أجل هذه الحكمة الجليلة وكى ترسخ فى نفوس المسلمين هذه الصّفة الوحيدة لصلاةٍ فى القرآن الكريم .

(١) تفسير القرطبىّ ١٩٣٨ .

روى الإمام مالك فى موطّئه عن سهيل ابن أبى حَثْمة أنّ صلاة الخوف أن يقوم الإمام ومعه طائفةٌ من أصحابه وطائفةٌ مواجَهة العدوّ ، فيركع الإمام ركعةً ويسجد بالّذين معه ثمّ يقوم . فإذا استوى قائماً ثبت ، وأتّموا لأنفسهم الرّكعة الباقية ثمّ يسلّمون وينصرفون والإمام قائم ، فيكونون وجاه العدوّ . ثمّ يُقْبل الآخرون الّذين لم يصلّوا فيكبّرون وراء الإمام فيركع بهم الرّكعة ويتشهّد ثمّ يسلّم، فيقومون ويركعون لأنفسهم الرّكعة الباقية ثمّ يسلّمون(١) .

والجمهور فى صلاة المغرب أن يصلّى الإمام بالطّائفة الأولى ركعتين وبالثّانيّة ركعة . وهذا قول مالك وأبى حنيفة لأنّه أحفظ لهيئة صلاة المغرب الثّلاثيّة . وقال الشّافعى : يصلّى بالأولى ركعة لأنّ عليًا رضى اللّه عنه فعلها ليلة الهرير ، كأمير ، من ليالى صفّين . واللّه تعالى أعلم(٢) .

ومن البيّن أنّ القول فى بداية الآية الكريمة : ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة﴾ موطّئٌ لوصف صلاة الخوف بعده ومقرّرٌ لوجود المصطفى ﷺ بين ظهرانَى المؤمنين ووجود الإمام بعد ذلك للجماعة المؤمنة الّتى تحرص على الصّلاة ، ومقرّرٌ كذلك لإقامة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ للصلاة الّتى يأتمّون فيها بالمصطفى ﷺ ، وبإمام الصّلاة من بعده عليه الصّلاة والسّلام بشأن كلّ جماعة مؤمنة . وبناءً على ذلك يكون بداية الوصف لصلاة الخوف بفاء العطف فى القول: «فلتقم طائفة منهم معك» والمعنى أنّ وقت الصّلاة المفروضة حينما يحين ويكون الأعداء أمام المؤمنين فإن على جيش المؤمنين أن ينقسم طائفتين أو فريقين . أمّا إحدى الطّائفتين فإنّ عليها أن تقوم للصّلاة تبعاً لإمامها ، وهو هنا المصطفى ﷺ ، وعليها أن تأخذ أسلحتها . ومن البيّن أنّ سلاح المصّلين ما خف(٣) قال تعالى : ﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم﴾ ويرتبط

(١) تفسير القرطبىّ ١٩٣٦ .

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ١٩٣٦ ، وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٢١١ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٢٠٧ .

بالأخذ فى الأساس شدّة القبض باليد ، والمراد هنا أنّ أسلحة هؤلاء المصلّين ينبغى أن تكون قريبةً منهم وكأنّهم آخذون لها ممسكون بها . وإذا كان المصلّون مأمورين بأخذ أسلحتهم ، فمن باب الأولى أن تكون صفة الطائفة الأخرى الحارسة أو الفريق الآخر . وإنّما كان الأمر بأخذ الأسلحة هنا كى يستطيع أن يستعملها المصلّون لحظة الحاجة إليها فيما لو مال عليهم الأعداء ميلةً واحدة وأرادوا أخذهم على غرّة . وحينما يكون ثمّة أمرٌ بأخذ السّلاح ، فإنّ فى ذلك أمراً ضمنياً بأخذ الحذر . وإنّما كان اكتفاءٌ فى الآية الكريمة هنا بأن يأخذ المصلّون أسلحتهم ، لأنّ اهتمام هؤلاء المصلّين قد استحوذت عليه صلاتهم واتّجاههم بكلّ أحاسيسهم ومشاعرهم إلى بارئهم جلّ وعلا، ولأنّ مهمّة الحذر مسئول عنها فى المقام الأوّل الطّائفة الأخرى الحارسة فى تلك اللّحظات .

فإذا سجدت الطّائفة المصلّية مع إمامها ، ومعروفٌ أنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد كما جاء فى الحديث النّبوىّ الشّريف ، وأنّ العبد السّاجد يكاد ينقطع حساً عن هذا العالم بسبب هيئة السّجود ، كما انقطع معنىً بسبب إقباله على بارئه جلّ وعلا ، فإنّ مهمّة الطّائفة الأخرى الحارسة تزداد بمقدار انقطاع السّاجدين عن هذا العالم حساً ومعنى . إنّ الآية الكريمة تأمر الطّائفة الأخرى الحارسة بأن تكون من وراء الطائفة السّاجدة . قال تعالى : ﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾ وقد عرفنا أنّ الآية الكريمة تصف صلاة الخوف حينما يكون الأعداء خلف المصلّين المتّجهين فى صلاتهم إلى القبلة . إنّ الآية الكريمة تنصّ على الوراء لأنّ الأعداء لو هاجموا لأتوا المسلمين المصلّين من ورائهم ، وإنّ الآية الكريمة تنصّ على السّجود لأنّ الأعداء لو هاجموا لانتقوا وقت سجود المؤمنين.

إنّ الصّلاة هنا إمّا أن تكون ثنائيّة كالفجر والظّهر والعصر والعشاء قصراً، أو ثلاثيّة كالمغرب ، وفى الحال الأولى تصلّي الطّائفة الأولى مع الإمام ركعةً واحدة ، وفى الحال الأخرى تصلّى ركعتين اثنتين ، ثمّ يقف الإمام فى الرّكعة

الثانية فى حال الصّلاة الثنائيّة ، أو فى الرّكعة الثّالثة ، وتتمّ الطّائفة الأولى صلاتها ، وفق إحدى صفات صلاة الخوف ، ثمّ تحلّ محل الطّائفة الأخرى الّتى لم تصلّ والّتى تأتى بدورها لتصلّى مع الإمام . قال تعالى : ﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخري لم يصلّو فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ إنّ هذه الطائفة الأخرى تصلّى مع الإمام الّذى يصلّى بهم ركعةً واحدة تتمّ بها صلاته ويسلّم ، فتكمل هذه الطائفة الأخرى صلاتها وتسلّم .

وإذا كانت الآية الكريمة قد اكتفت بشأن الطّائفة المصلّية أن تأخذ أسلحتها في أثناء الصّلاة وقد عرفنا الحكمة من ذلك ، ومن الاكتفاء بالتّنبيه على أخذ السّلاح ، فإنّ الآية الكريمة بشأن الطّائفة الأخرى الحارسة ، تأمر بأخذ الحذر وبأخذ الأسلحة معاً . قال تعالى : ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ أمّاأخذ الحِذْر فلأنّ هذه هى مهمّتهم الأولى وإلاّ لانضمّوا فى الصّلاة إلى الطّائفة الأولى . وأمّا أخذ الأسلحة فلأنّ استعمال هذا السّلاح هو التّطبيق العمليّ للأمر النّظرىّ وهو أخذ الحِذْر، وإلاّ فما قيمة أخذ الحذر إذا لم يتحوّل إلى دفاعٍ عن المصلّين وكسرٍ لشوكة الكافرين ، ولا يكون ذلك إلا بأخذ السّلاح واستعماله.

إنّ الكافرين أعداء المؤمنين ويتربّصون بهم الدّوائر ويحرصون على قتلهم وعلى الظّفر بالغنيمة من المسلمين . وكى يتكمنّ المسلمون بعون اللّه تعالى من دحر أعداء اللّه تعالي ، هم بحاجة إلى أخذ الحذر وعدم الغفلة وإلى استعمال السّلاح لحظة الحاجة لحماية أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . وإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها التّالية لتتحدّث فى ذلك . قال تعالى : ﴿ ودّ الّذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة﴾ . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تضيف إلى الأمر بأخذ الحذر والأسلحة ذكر الأمتعة المغرية للكافرين بالقتال، لأنّ الغنيمة هى الهدف الوحيد الّذى يحرص عليه الكافرون .

وإنّ وسيلتهم إلى الحصول على الغنيمة القتال . قال تعالى : ﴿ ودّ الّذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدةً ﴾ .

وإنّ القول : ﴿ فيميلون عليكم ميلةً واحدة ﴾ يشير من ناحية إلى أنّ الّذى يغرى الكافرين بأن يميلوا عليكم جميعاً ميلةً واحدةً لا تحتاج إلى أخرى ، ويباغتوكم بهجومٍ مفاجئ ، هو عدم أخذ الحِذْر وعدم أخذ السّلاح ، ممّا يجعل الكافرين لا يفكّرون فى الانتصار عليكم فقط ، إنّما فى الحصول على الغنيمة الّتى يسيل لها لعابهم . وإنّ هذا القول ينّبه المسلمين إلى ما يجرّ عليهم - لا سمح اللّه - عدم الحذر والغفلة . إنّ النّتيجة غايةٌ فى السّوء - لا سمح اللّه - بحيث إنّ الأعداء لا يحتاجون إلى غير تلك المرّة الواحدة الّتى مالوا فيها على المؤمنين ميلتهم ، وأخذوهم على غرّة ، فلم تقم لهم - لا سمح اللّه - بعد ذلك قائمة .

ومن البيّن أنّ ذكر الأسلحة يأتى فى المواضع الثّلاثة ، لأنّ أخذ السّلاح يعنى كمال الحذر والاستعداد للقتال . يأتى ذكر الأسلحة وحدها فى المرّة الأولى ، ويأتى ذكر الأسلحة مع الحذر فى المرّة الأخرى ، ويأتى ذكر الأسلحة مع الأمتعة فى المرة الثّالثة . ووراء كلّ ذلك يأتى ذكر الأسلحة مع أخذ الحذر فى المرّة الرابعة والأخيرة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مَرْضَى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾ .

إنّ الجزئية الكريمة تنفى عن المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى الحرج والإثم إن كان بهم أذًى من مطر أو كانوا مرضى فوضعوا أسلحتهم ، مع وجوب أخذهم الحذر فى كلّ الأحوال . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تذكر العذرين بين يدى الإذن بوضع السّلاح، وتأمر بأخذ الحذر بعد الإذن . وتقدّم الجزئيّة الكريمة أهمّ العذرين الّذى يشترك فيه المؤمنون والكافرون ، وهو أن يكون ثمّة أذى من مطر . إنّ هذا الأذى يشترك فيه كلّ الّذين فى ساحة القتال من مؤمنين وكافرين ، وكما يصعب على المسلمين فى تلك الأثناء حمل السّلاح

والحركة يصعب على الكافرين ، ومنتهى ما تسمح به الآية الكريمة فى تلك الأثناء وضع السّلاح مع أخذ الحذر . إنّ أخذ الحذر قاسم مشترك بين كلّ الحالات فلا ينبغى التّفريط فى الحذر بحالٍ من الأحوال : « فإنّ الجيش ما جاءه مصابٌ إلا من تفريطٍ فى حذر »(١).

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تذكر الأذى مع المطر ولا تذكره مع المرض فلا يجئ فيها القول مثلاً : إن كان بكم أذى من مطر أو مرض ، إنّما يجئ فيها القول : ﴿إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى﴾ .

إنّ الأذى يرتبط بالمطر لأنّه شئٌ خارجى ، ولأنّه أذى جماعى ، ولأنّه أذى متنوّع الصّور من بلل ، وصداً للسلاح ، وذهاب بالمتاع ، وتعطيل للحركة، وما إلى ذلك . أمّا المرض فلأنّه شئٌ ذاتىّ ،ولأنّه محدود الأثر ، ولأنّه فى حقّ المؤمن تمحيصٌ لذنوبه وتكثيرٌ لحسناته .

ونحن نستطيع أن نفهم من الطّريقة الهيّنة اللّطيفة لوضع السّلاح من القول : «أن تضعوا أسلحتكم» قرب الأسلحة من المجاهدين . إنّ كلّ المسموح لهم به هو أنّهم بسبب الأذى من المطر ، وبسبب ضعفهم من المرض ، أن يضعوا أسلحتهم بلطف بدلاً من حملها بحيث إنّهم لحظة الحاجة إليها يحملونها فوراً من بعد وضع. وممّا يؤكد ضيق الفجوة بين حمل السّلاح ووضعه الأمر فى الجزئية الكريمة فوراً بأخذ الحذر . قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مَرْضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾ .

وفى التّذييل : ﴿ إنّ اللّه أعدّ للكافرين عذاباً مهينًا ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ اللّه سبحانه وتعالى أعدّ لهؤلاء الكافرين المشركين مع اللّه تعالى غيره عذاباً ذا هوان لهم يوم القيامة ، إثر العذاب المهين الّذى كان من نصيبهم بسلاح المؤمنين فى هذه الحياة الأولى .

وما المطلوب من المسلمين أن يفعلوا حينما يقضون صلاة الخوف ؟ أن

(١) تفسير القرطبى ١٩٤٣ .

يذكروا اللّه تعالى ، وما المطلوب منهم أن يفعلوا حينما يطمئنّون ؟ أن يقيموا الصّلاة بكمال شروطها وإلى ذلك أشارت .

الآية رقم (١٠٣)

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

تخاطب الآية الكريمة الّذين آمنوا وتقول لهم: فإذا قضيتم صلاة الخوف، وقد عرفنا أنّ لها صوراً متعددة ، وأنّها حينما يحمى الوطيس قد تتحوّل مجرّد إيماء، دون أن تَسْقُطَ بحالٍ من الأحوال ، فإذا قضيتم الصّلاة والحال هذه فاذكروا اللّه بالتّهليل أى بقول : لا إله إلاّ اللّه ، والتّحميد أى بقول : الحمد للّه ، والتّسبيح أى بقول سبحانه اللّه . ومتي يؤمَرُ المؤمنون بذكر اللّه تعالى؟ فى أشدّ الأوقات وأحلك اللّحظات للدّرجة الّتى يُصَلَّى معها صلاة الخوف ، وذلك دليلٌ على أهمّيّة الذّكر من ناحية ، وعلى سهولته من ناحية أخرى . ودليلاً على أهمّيّة الذّكر وسهولته تختار الآية الكريمة الحالات الثّلاث الرئيسيّة للإنسان حال الصّحة وحال المرض وما بينهما . قال تعالى : ﴿ فإذا قضيتهم الصّلاة فاذكروا اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ .

والآية الكريمة تبدأ بحال الصّحّة وها هو ذا المجاهد فى سبيل اللّه تعالى وهو فى ميدان المعركة وفى وسط المعمعة لا يَفْتُرُ لسانه عن ذكر اللّه تعالى . ثمّ تذكر الآية الكريمة الحال التّالية الوسطى حينما يكون الإنسان قاعداً . ومع أنّ صفة القعود يشترك فيها المريض والصّحيح ، فإنّ الحرب وملابساتها وما يرتبط بها فى العادة من جراح وصعاب مظنّة انصراف هيئة القعود إلى المضطرّ إليه عجزاً عن القيام . ويلاحظ تحوّل الآية الكريمة اللّطيف من الوقوف إلى القعود

الّذى يكون التّحوّل إليه من القيام إذ يقال : كان قائماً فقعد . ثمّ تأتى الحال الثّالثة والأخيرة الّتى تدلّ على الضّعف المتمكّن : «وعلى جنوبكم» وهذه الحال الثّالثة تقتضى المرور بالحال الوسطى وهى حالة القعود . وهكذا يتبيّن التّدرّج الجميل فى ذكر هذه الحالات الثّلاث والتّرتيب المنطقىّ لها .

وكما اشترك الصّحيح والمريض فى صفة القعود هما يصحّ أن يشتركا في الحال الثّالثة : « وعلى جنوبكم » لأنّ كلاً من الصّحيح والمبتلى مطالبٌ بأن يذكر اللّه تعالى . وكما اتّجه الحديث إلى المريض بطريق الأولى بشأن الحال الثّانية ، يتّجه إليه كذلك بشأن الحال الثّالثة . ونتذكر بهذه المناسبة قوله عزّ من قائل فى سورة يونس[1] ﴿ وإذا مَسّ الإنسان الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسّه . كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾.

ومن البيّن ابتداء الحديث في آية سورة يونس بأضعف الحالات «لجنبه» لأنّ ذكر الضّرّ قبله مرشّحٌ لذلك ، وابتداء الحديث فى آية سورة النساء بأقوى الحالات «قياما» لأنّ الجوّ جوُّ حربٍ ، والقوّة والقدرة والصّحة أصلٌ فيها ، أمّا الضّعف فعارض.

وإذا كانت آية سورة النساء الكريمة ذكرت أهمّ حالات الإنسان كى يذكر اللّه تعالى فيها دليلاً على أهمّيّة الذّكر وسهولته ، فإنّ فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، الحثّ على ذكر اللّه تعالى ذكراً كثيراً وتسبيحه تعالى . أي فى أكثر الأوقات . ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى فى سورة الأحزاب[2] ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا اللّه ذكراً كثيراً . وسبّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾ .

ومن الأدلّة على اتّجاه الحديث فى المقام الأوّل إلى المبتلى فى الحرب

(١) الآية ١٢ .
(٢) الآية ٤١ ، ٤٢ .

فعليه أن يذكر اللّه تعالى ، الإشارة إلى الاطمئنان فى القول بعد ذلك : «فإذا أطمأننتم فأقيموا الصّلاة» والمعروف أنّ الاطمئنان والسكون إنّما يكونان بعد الانزعاج»[١] وقد جاء الاطمئنان بذهاب الخوف وبعد أن وضعت الحرب أوزارها .

إنّ المسلمين للّه ربّ العالمين مأمورون بعد الاطمئنان والأمان أن يقيموا الصّلاة بأن يؤدّوها كاملةً غير منقوصةٍ شيئاً من أركانها وواجباتها وسننها وشروطها وما إلى ذلك .

وفى التّذييل : ﴿ إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد فرض على المؤمنين به جلّ وعلا ربًّا وبمحمّد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، قد فرض الصّلاة الّتى جعلها جلّ وعلا كتاباً موقوتا ، وفريضةً مفروضة[١] وفرضاً وقّت لهم وقت وجوب أدائه[٢] .

ومن البيّن أنّ الحديث عن الصّلاة فى هذه الآية الكريمة وفى الآيتين الكريمتين السّابقتين دليلٌ على أهميّة الصّلاة فى الإسلام لأنّها عماد الدّين ولأنّها أشرف أركان الإسلام بعد الشّهادتين .

وكما كان حثّ على الصّلاة حتّى فى ساحة الجهاد وساعة لقاء اللّه تعالى، كان حثّ على الجهاد فى سبيل اللّه تعالى والصّبر والمصابرة والمرابطة ومطاردة أعداء اللّه وذلك فى

الآية رقم (١٠٤)

قال تعالى : وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى «طمن» ٣٠٧ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٦٧ .

تنهى الآية الكريمة الّذين آمنوا عن الوهن فى ابتغاء القوم ، وعن الضّعف فى طلب الكافرين ، والجبن عن مطاردتهم . وإنّ أهمّ ما يلفت النّظر بشأن الجزئيّة الكريمة الإشارة إلى الوهن واستعمال حرف الجرّ «فى» إنّا بشأن القول : «ولاتهنوا» حينما نقارن بين الوهن وما شاكله من ألفاظ كالضّعف والتّعب والنّصب وما إلى ذلك ، نتبيّن أنّ الوهن يمثّل أقوى درجات التّعب الأكيد والضّعف الشّديد . وكأنّ الجزئيّة الكريمة تنهى عن الوهن الّذى يمثّل هذه الدّرجة السّحيقة من الضّعف فى أثناء ابتغاء القوم ومطاردة الأعداء . وكأنّ ابتغاء الأعداء أو مطاردتهم أمرٌ مفروغٌ منه ويقوم به المجاهدون بطريقة فطريّة . وفى هذا القيام هم يصيبهم التّعب والنّصب . وهذان أمران طبيعيّان . فعلى المجاهدين أن يستمرّوا فى الاتّباع ، وهذا الاستمرار هو الّذى استفدناه من حرف الجرّ فى ، إذ الملاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة تستعمل حرف الجرّ «فى» وليس حرف الجرّ «عن» مثلاً ، كما تستعمل من أجل حرف الجرّ «فى» جملة «تهنوا» وليس : «تضعفوا» أو : «تقصّروا» مثلا . إنّ حرف الجرّ «في» بالذّات يفيد الحثّ على الاستمرار فى ابتغاء الأعداء . وعلى المجاهدين كذلك فى أثناء الاتّباع ألاّ يصلوا إلى درك الوهن الّذى يكاد هنا يعنى الفشل والجبن . وهكذا يتبيّن شئٌ من إعجاز القرآن الكريم فى استعمال الألفاظ وحروف الجرّ .

والجزئيّة الكريمة التّاليّة مبيّنةٌ للجزئيّة الكريمة السّابقة وموضّحةٌ للحكمة من الأمر بالاستمرار فى ابتغاء الأعداء ومطاردتهم . قال تعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من اللّه ما لا يرجون ﴾ .

إنّكم أيّها المجاهدون فى سبيل اللّه تعالى ، إن تكونوا فى استمراركم ابتغاء أعداء اللّه تألمون أجساداً ، فإنّ أعداء اللّه تعالى يألمون مثلكم أجساداً ، ولكنّكم تنفردون بأنّكم ترجون من اللّه تعالى الثّواب الجزيل ، والنّعيم المقيم ، ما لا يرجو القوم منه تعالى ولا يأملون ، لأنّ الشّيطان اللّعين ولىّ القوم ، أمّا أنتم فإنّ اللّه تعالى هو مولاكم .

ومن الطّبيعىّ أن يكون الّذى يرجو ثواب اللّه تعالى أكثر صبرا ومصابرةً ومرابطةً وابتغاءً لعدوّ اللّه تعالى بأكثر من ذلك العدوّ للّه تعالى ولرسوله وللمؤمنين .

وفى الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ وكان اللّه عليماً حكيماً ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو العليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، فاللّه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئٌ في الأرض ولا فى السّماء ، ومن ذلك ما تعملون أيّها المجاهدون وحقيقة نيّاتكم ، كما تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى حكيم في كلّ أقواله وأفعاله وأحكامه وتقديراته وفى كلّ شئ، ومن ذلك أمره جلّ وعلا لكم بأن تستمروا فى مطاردة أعداء اللّه تعالى ابتغاء مرضاتى وجنّاتى.

(١٤)

أنزلنا إليك الكتاب للحكم به وتبيين فضلنا عليك وثواب المؤمنين وعذاب المشركين

الآيات (١٠٥ ـ ١٢٢)

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾
وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾
۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

تحدّثت السّورة عن المنافقين كثيراً ، بما فى ذلك القسم قبل السّابق. وها هى ذى تعود إلى الحديث عن المنافقين وعن المشركين إخوان المنافقين ، بدليل أنّ واحداً من المنافقين ارتدّ عن الإسلام وترك المدينة المنّورة ولحق بمشركى مكّة المكرّمة . وهذا القسم يدور فى مجمله حول حادثة اتّهام لبرئ تولىّ كبْرها أحد المنافقين وهو طُعمة بن أبيرق الّذي سرق درعًا واتّهم بريئًا من المسلمين أو من اليهود . وكاد طُعمة وبنو أبيرق وقومهم يضلّلون المصطفى ﷺ بتبرئة الجانى لولا أن عصم اللّه تعالى حبيبه المصطفى ﷺ . ويبيّن السّياق ابتداءً أنّ رب العزّة أنزل إلى المصطفى ﷺ القرآن الكريم ليحكم عليه الصلاة والسّلام بين النّاس أجمعين ، بالحق الّذى أوحاه اللّه تعالى إليه وبما علّمه اللّه تعالى . وينهى عليه الصّلاة والسّلام عن أن يكون للخائنين خصيما، وأن يجادل عن الّذين يختانون أنفسهم ، ويؤمر بأن يستغفر اللّه وهو الذى غفر اللّه تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وفى ذلك درسٌ بليغٌ لأمتَه عليه الصلاة والسّلام فى وجوب الاستغفار وهم الفقراء إلى اللّه تعالى . ويوصف المنافقون المغفّلون بأبلغ صفاتهم وأبسطها وهى أنّهم يستخفُون من عباد اللّه تعالى الّذين لا يكادون يعلمون شيئًا والّذين لا يملكون لهم شيئًا ، ولا يستخفون من اللّه تعالى وهو معهم جلّ وعلا ، وهو القادر على كلّ شئ عزّ وجلّ . وبطبيعة الحال إنّما يراد بتقرير عدم استخفاء المنافقين من اللّه تعالى الاستهزاء بهم ، لأنّهم لا يستطيعون بحال أن يستخفوا منه جلّ وعلا، ولكنهم يستطيعون ألا يعصوا اللّه تعالى مطلقًا وهذا المقصود بالقول : ﴿ ولا يستخفون من اللّه وهو معهم إذ يبيّتون ما يرضى من القول ﴾ .

وإذا كان المصطفى ص قد أُمر بالاستغفار بشأن ما كاد يقوم به عليه الصّلاة والسّلام بسبب القرائن والأدلّة والشهود من تبرئة للجانى ، وفى ذلك تحويلٌ فطرىّ للتّهمة إلى البرئ واتّهامٌ للمظلوم ، فإنّ قوم الجانى الّذين دافعوا عنه قد نالوا نصيبهم . إنّ السّياق يؤنّبهم ويقول لهم إنّكم جادلتم عنهم فى الحياة الدّنيا فمن يجادل اللّه تعالى عنهم يوم القيامة ، ومن يكون عليهم

وكيلا. والجواب لا أحد . وتأتى مجموعةٌ من الدّروس القرآنية بعد ذلك . إنّ من يعمل سوءًا يسوء به غيره أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر اللّه تعالى من ذنبه سوف يجد اللّه تعالى دائمًا هو الغفور الرحيم . وهكذا ينال العباد حظّهم من الأمر بالاستغفار بعد أن نال المصطفى ﷺ حظّه منه . وإنّ من يجنى إثمًا فإنّما يجنيه على نفسه لأن العقاب جزاؤه . وإنّ من يكسب خطيئة وسيئة عن غير قصد ، أو يكسب إثمًا عن قصد ، ثمّ يَرْمِ بذلك الإثم بريئًا فقد احتمل بهتانًا وباء بحمل الإثم المبين. ولّما كان المصطفى ﷺ قد أراد أن يضلّله طعمة وقومه لولا فضل اللّه تعالى عليه ﷺ ورحمته ، فإنّ السّياق يذكر ذلك ويبيّن أنّ القوم إنّما يضلّون أنفسهم وأنّهم لا يضرّونه عليه الصلاة والسّلام فى شئ ، ويذكر عددًا من مظاهر فضل اللّه تعالى عليه ﷺ من الإيحاء بالكتاب والسّنّة وتعليمه عليه الصّلاة والسّلام ما لا يعلم .

وكانت النجوى الّتى يتّسم بها المنافقون والعمل فى خفاء منطلقًا للحديث عن نجوى النّاس وتقرير أنّ كثيرًا منها لا خير فيه إلا من أمر من المتناجين بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس . وينبّه السّياق إلى أنّ هذه الأعمال يجب أن يراد بها وجه اللّه تعالى وحده لا شريك له كى يُنال الأجر العظيم . أمّا من يخالف الرّسول ﷺ ويتّبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين كطعمة الّذى ارتدّ فيما يقال فإنّ مآله الخذلان فى الأولى وجهنّم فى الآخرة . ويبيّن السّياق للّذى ارتدّ ولكلّ مشركٍ بأنّ اللّه تعالى : ﴿لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ويصف السّياق المشرك بالضّلال وبالتناقض أيضاً لأنّه يخلع على الآلهة المزعومة بعض الأسماء المؤنّثة المشتقّة من أسماء اللّه تعالى الحسنى، كاللات من اللّه ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنّان ، فى الوقت الّذى يكرهون الإناث ويحبّون الذّكور . كيف يحبّون الذّكور ويخلعون على أصنامهم أسماء إناث ، وكيف يزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه تعالى وهم الّذين لا يحبّون البنات .

إنّ القوم إنّما أشركوا باللّه تعالى بسبب إضلال الشّيطان الرّجيم لهم ،

ويذكر السيّاق عدداً من وعود اللّعين وأمانيّه وضلالاته ، فى حقّ الّذين اتّخذوا الشّيطان وليًّا فى الوقت الّذى كان ينبغى عليهم أن يكفروا به .

ويتحدّث السّياق عن وعود الشيطان وأمانيّه ، ويصف الوعود بأنّها غرور، ويسكت عن الأمانى ، لأنّ الوعود يصحّ عقلاً تحقّقها ، وليس حظّ الأمانى من احتمال التّحقّق كحظّ الوعود ، لهذا وصفت الوعود فقط بأنها غرور ، وسكتت عن الأمانى لأنّ ما يمكن تحقّقه عقلاً غرورٌ من الشيّطان الرجيم وخداع ، فكيف بالأمانى الّتى هى أقرب إلى أحلام اليقظة . إنّ وصف الوعود وحدها بأنّها غرور يغنى عن وصف الأمانى وإنّ السّكوت عن وصفها أبلغ من النّطق. وإذا كان حظّ المشركين من وعود اللّعين وأمانيّه الخِذْلان فى الدّنيا فإنّ حظّهم يوم القيامة النّار وبئس القرار .

وكما كان حظّ الكافرين النّار وبئس القرار ، كان حظّ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات جنّات النّعيم . إنّ ذلك وعد الحقّ جلّ وعلا وقول الصّدق، وذلك فى مقابل وعود اللّعين وأمانيه الكاذبة .

الآية رقم (١٠٥)

قال تعال :

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

سبب النّزول :

جاء فى سبب نزول الآية الكريمة وحتّى الآية الكريمة السّادسة عشرة بعد المائة، وما بعدها كذلك ، أنّها كلّها أنزلت فى قصّة واحدة . وذلك أنّ رجلاً من الأنصار يقال له : طُعْمة بن أبيرق ، أحد بنى ظفر بن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النّعمان . وكانت الدّرع فى جراب فيه دقيق ، فجعل الدّقيق ينتثر من خَرْق فى الجِراب حتّى انتهى إلى الدّار وفيها أثر الدّقيق.

ثمّ خبأها عند رجل من اليهود يقال له : زيد بن السّمين . فالتُمست الدّرع عند طُعْمة فلم توجد عنده ، وحلف لهم واللّه ما أخذها وما له بها من علم . فقال أصحاب الدّرع : بلى واللّه قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتّى دخل داره فرأينا أثر الدّقيق . فلمّا أن حلف تركوه واتّبعوا أثر الدّقيق حتّى انتهوا إلى منزل اليهودىّ فأخذوه فقال : دفعها إلىّ طُعْمة بن أبَيْرق ، وشهد له أناسٌ من اليهود على ذلك . فقالت بنو ظفر - وهم قوم طعمة - انطلقوا بنا إلى رسول اللّه ﷺ . فكلّموه فى ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودى ، فهمّ رسول اللّه ﷺ أن يفعل فأنزل اللّه تعالى الآيات الكريمات (١).

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : ﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ﴾ وإنّ الحقّ جلّ وعلا أنزل إليك القرآن الكريم بالصّدق، وأوحاه إليك بواسطة مَلَك كريم هو جبريل السّلام أمين اللّه تعالى على وحيه . وتعيّن الآية الكريمة جانبًا مهمًا من جوانب هداية القرآن الكريم للطّريقة الّتى هى أقوم فى كل المجالات ، ومنها مجال الأحكام ، فتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل إليك أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم القرآن الكريم : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك اللّه﴾ ومن أجل أن تقضى بين النّاس أجمعين ، مؤمنين وغير مؤمنين ، متّقين وغير متّقين ، بما أعلمك اللّه تعالى إيّاه وأوحى به إليك ، قرآنًا كريما وسنّةً مطهّرة .

وينبغى أن يكون لواو الاستئناف دورها فى القول : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيما﴾ إذ لا تجئ الفاء فلا يقال : فلا تكن ، فيكون ما بعد الفاء مترتّبًا على ما قبلها ومسببًا عنه . وإنّ واو الاستئناف هنا توحى باستقلال كلٍّ من المعنيين . إنّ اللّه سبحانه وتعالى أنزل إلى المصطفى ﷺ القرآن الكريم بالحقّ من أجل أن

(١) انظر هنا أسباب النّزول للواحدى ٢١٠ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٥١ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٧٠ وتفسير ابن عطية ٤/ ٢١٧.

يحكم بين النّاس أجمعين بما أراه اللّه تعالى وأعلمه إيّاه . هذا هو المعنى الأوّل المستقلّ . وأمّا المعنى الآخر المستقلّ أيضًا فهو نهي اللّه تعالى المصطفى ﷺ عن أن يكون مخاصمًا لصالح الخائنين ، ومحاميًا ومدافعًا عن الّذين يخونون أماناتهم ، ويعصون اللّه تعالى ، ويعصون رسوله ﷺ .

لقد عرفنا من سبب النّزول أنّ المصطفى ﷺ همّ بأن يدافع عن الخائن ولم يفعل . لقد همّ عليه الصّلاة والسّلام أن يفعل ذلك تحت تأثير البراءة المصطنعة الّتى أوحى بها المتّهمون من بنى أبيرق ، وتوجيه الشّك والتّهمة إلى البرئ المظلوم . وإنّما لم يفعل المصطفى ﷺ ذلك ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذى يوجّه المصطفى ﷺ ويسدّده ، ويؤيّده ويعضده. ومع أنّ المصطفى ﷺ، وهو البَشَر ، إنّما يحكم بناءً على الأدلّة والقرائن ، وقد عبث المغرضون بكلّ ذلك ، فلا حرج عليه ﷺ لو حكم فى ضوء ما ظهر له وثبت ، فإنّ المصطفى ﷺ حينما أوحى اللّه تعالى إليه فى هذه القضيّة بالحقّ الّذى أدان المتّهم الحقيقىّ وبرّأ الأمين المظلوم ، أُمِرَ بأن يستغفر اللّه تعالى وذلك فى .

الآية رقم (١٠٦)

قال تعالى :

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

مع أنّ المصطفى ﷺ قد غفر اللّه تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر بنصّ القرآن الكريم ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يستغفر اللّه تعالى الغفور الرحيم . وقد عرفنا أنه عليه الصّلاة والسّلام يؤمر بأن يستغفر اللّه تعالى إثر تنبيهه عليه الصّلاة والسّلام ونهيه عن المخاصمة عن الخائنين التى كاد يتورطّ فيها عليه الصّلاة والسّلام . وإنّما أُمر عليه الصّلاة والسّلام بالاستغفار من ذنبٍ لم يرتكب ، لمنزلته الخاصّة الرّفيعة عند بارئه جلّ وعلا ، بحيث إنّ وشك الدّفاع عن الخائن يقتضى الاستغفار وكأن ذنبًا قد ارتكب فعلاً.

ولّما كانت الآية الكريمة مبدوءةً بالواو العاطفة والمعنى : ولا تكن مخاصمًا عن الخائنين واستغفر اللّه ، وقد عرفنا أنّ الواو من القول : «ولا تكن » استئنافيّة ، فليس النّهى مسبَّبًا عن نزول القرآن الكريم للحكم به وبالتّالى ليس النّهى بسبب ارتكاب مخالفة فى حقّ الحكم بما أوحى اللّه تعالى ، لذا فإنّ استقلال المعنى فى القول: ﴿ ولا تكن للخائنين خصيما ﴾ ينسحب على القول المعطوف عليه : ﴿واستغفر اللّه﴾ وبذلك يكون المصطفى ﷺ مأمورًا بأن يستغفر اللّه تعالى دائمًا وأبدًا، وفى كلّ وقت، بما فى ذلك الوقت الّذى كاد يكون فيه المصطفى ﷺ، مصادفةً، للخائنين خصيمًا، بتأثير المتّهمين الحقيقيّين الصّارفين للتّهمة عنهم إلى البريئين .

وكما نُهى عليه الصّلاة والسّلام عن أن يكون عن الخائنين مدافعًا نُهي عن المجادلة عن هؤلاء الخائنين وذلك فى :

الآية رقم (١٠٧)

قال تعالى:

وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

تنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن أن يجادل ويخاصم عن الّذين يخوّنون أنفسهم بالمعاصى ، لأنّ وبال خيانتهم عائدٌ عليهم . وبشأن التّعقيب فى الآية الكريمة: ﴿ إنّ اللّه لا يحبّ من كان خوّانًا أثيما﴾ تجئ صيغتا المبالغة خوّان وأثيم ، وليس صيغتى اسم الفاعل خائن وآثم . وكأن الّذى ينتهى به درك الشّقاء إلى عدم حبّ اللّه تعالى له وعدم رضاه جلّ وعلا عنه ، هو ذلك الّذى اتّخذ الخيانة دأبه وارتكاب الآثام ديدنه . وكأن صيغتى المبالغة هنا تذكّراننا بقوله تعالى فى هذه السّورة الكريمة [1] : ﴿وليست التّوبة للّذين

(١) الآية : ١٨ .

يعملون السيّئات حتّي إذا حَضَرَ أحدهم الموتُ قال إنّى تبت الآن﴾ والحقيقة أنّ هاتين الصيّغتين للمبالغة «فعّال» و «فعيل» تجعلاننى أتساءل حينما يفضح اللّه تعالى عبدًا من عباده خائنًا أو آثمًا على رءوس الأشهاد هل هذه هى المرّة الوحيدة ، أو المرّة الأولى هي الّتى يرتكب فيها الخائن خيانته ، والآثم إثمه ؟ يصحّ أن يكون الجواب بالإيجاب ، كأنّ اللّه سبحانه وتعالى أراد بعبده الخير إذ فضحه فى أوّل طريق الشّرّكى يُبغضَه ويتحوّل عنه إلى طريق الخير . ولكنّ الّذى يغلب على الاعتقاد أنّ هذه ليست هى المرّة الأولى ، وكأن ذلك الخائن قد ألف الخيانة فصار خوّانا ، وكأنّ ذلك الآثم قد ألف اقتراف الآثام فصار أثيما ، وحينما لم يستفد كلٌّ من الخوّان والأثيم من إمهال اللّه تعالى لهما وحينما حسبا الإمهال إهمالاً أخذهما اللّه تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر[1] وقد قال تعالى[2] : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد﴾.

وعلى عادة المنافقين العمل فى الظّلام والخفاء عمل بنو أبيرق وإلى ذلك أشارت.

الآية رقم (١٠٨)

قال تعالى :

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ بني أبيرق المنافقين يستخفون من النّاس ويستترون منهم ويتوارون ويطلبون الخفاء ويحرصون عليه من أعين عباد اللّه تعالي كيلا يُعْرف أمرهم ويفتضح سرّهم ، كما تقرّر الآية الكريمة أنّهم لا يستخفون من

(١) انظر هنا مثلاً البحر المحيط ٣/٣٤٦.

(٢) سورة هود : ١٠٢ .

الله تعالي وهو جلّ وعلا معهم وأقرب للواحد منهم من حبل الوريد . فهل يظنّ بنو أبيرق أنّ اللّه سبحانه وتعالي لا يعلم سرّهم ونجواهم ؟ أم هل يخشي بنو أبيرق النّاس بأكثر من خشيتهم اللّه ؟ أم هل يسئ بنو أبيرق فهم إمهال اللّه تعالي فيحسبونه إهمالاً ؟ أم هل يعتقد بنو أبيرق أنّ اللّه سبحانه وتعالي لن يهتك سرّهم ولن يكشف عورتهم ، لذا هم يأتون بعيداً عن أعين النّاس ما يقبح من أقوال وأفعال ؟ أسئلة يعرف بنو أبيرق أجوبتها .

وأيّ فعلٍ سيّيءٍ يبيّته في الظّلام بنو أبيرق وينسجونه في الخفاء ؟ وأيّ قولٍ سيّيء ونيّةٍ سيّئة يبيّتون ؟ إنهم بنصّ الآية الكريمة ما لا يرضي اللّه تعالي عنه من اتهام لبريئ وتبرئة لخائن .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ اللّه سبحانه وتعالي محيطٌ بكلّ ما يعملون . ومن البيّن أنّ صدر الآية الكريمة يشمل القول ، وأنّ التذييل يشمل العمل . إنّ اللّه سبحانه وتعالي محيطٌ بكلٍ من القول ومن العمل .

وإن لسان حال الآية الكريمة يقول إنّ علي كلّ النّاس وفيهم المنافقون أن يعلموا أنّ اللّه تعالي يعلم سرّهم وجهرهم ويحيط بنيّاتهم وبأعمالم ، فالأولي بهم أن يخشوا اللّه تعالي فلا يأتوا أصلاً قبيح الأقوال والأعمال . و العجيب في أمر الحمقي والمغفّلين من عباد اللّه تعالي أنّهم يستخفون من النّاس ولا يستخفون من اللّه تعالي ، ويخشون النّاس الذين لا يملكون لهم شيئاً ولا يخشون اللّه تعالي العالم بكل شئ والقادر علي كلّ شيء . وبعد الحديث عن هؤلاء المنافقين يتحوّل السيّاق إلي مخاطبة قومهم الّذين يدافعون عنهم بدافع العصبيّة المقيتة فإلي :

الآية رقم (١٠٩)

قال تعالي :

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

تخاطب الآية الكريمة قوم طعمة بن أُبيرق الّذين جادلوا عن طعمة وأهله فتقول لهم في أسلوب الإنكار : ها أنتم يا هؤلاء دافَعتُم عن طعمة وأهله دفاعاً مستميتاً وخاصمتم عنهم منتفعين من طاقة البشر المحدودة في الإدراك وفي العلم ، لأن اللّه سبحانه وتعالي قد شاء ذلك للبشر في الحياة الدّنيا وفيهم حبيبه المصطفي ﷺ الذي لا يعلم إلا ما علّمه اللّه تعالي . ويصحّ لكم بسوء نيّة أو بحسنها أن تقلبوا الحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، وأن تتهموا البرئ وتبرئوا المتهم لأنّ القاضي إنما يحكم علي ما يقدَّم له من أدلّة وبراهين ، وما يتضح له من قرائن وملابسات ، ومن هؤلاء المصطفي ﷺ الّذي حاول بعض المنافقين أن يضلّه عليه الصّلاة والسّلام في مجال الأحكام . إنّه إذا كان هذا وذاك قد صحّ لكم في هذه الحياة الدّنيا أيّها المجادلون عن المنافقين ﴿ فمن يجادل اللّه عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا﴾

إنّ الإنكار إذا كان مفهوماً في صدر الآية الكريمة وأسلوبها التّقريريّ فإنّه مفهوم بدرجة أكبر في الاستفهام في عجزها الّذي يسأل المجادلين في إنكار : من يجادل اللّه تعالي عن هؤلاء المنافقين يوم القيامة وقد فضحهم علي رءوس الأشهاد وثبتت خيانتهم أمام الملأ في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ؟ الجواب: لا أحد. وتواصل الجزئية الكريمة سؤالها في إنكار : ﴿ أم من يكون عليهم وكيلا ﴾ ؟ من هذا الّذي يخطر بباله ويجرؤ يوم القيامة فيكون علي هؤلاء المنافقين وكيلا يرعي شئونهم ومصالحهم وقد أخزاهم اللّه تعالي وفضح خيانتهم على رءوس الأشهاد ؛ الجواب : لا أحد .

وحينما يعلن القرآن الكريم خيانة المنافقين ينبغي أن يكون موقف النّاس منهم في هذه الحياة الأولي كموقفهم منهم يوم القيامة ، ليس هنالك من يجادل عنهم أو يتوكّل لهم . وهكذا يتبيّن الخطأ الكبير الّذي تورّط فيه المدافعون عن طعمة وأهله من المنافقين .

وعلي الرّغم من فضح ربّ العباد المنافقين في محكم كتابه فإنّ رحمته

جلّ وعلا الواسعة تسعهم فترشدهم إلي وجوب استغفار اللّه تعالي الغفور الرّحيم وذلك في :

الآية رقم (١١٠)

قال تعالي :

وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يعمل سوءاً بارتكاب ذنب يسوء به غيره ، كما فعل بنو أبيرق الخونة حينما اتهموا البريئ بالسّرقة ، أو يظلم نفسه ، بارتكاب الذنب المقصور عليه الّذي يظلم به نفسه وحدها لأنّ عاقبة ظلمه عائدة عليه وحده دون سواه ، ثمّ يستغفر اللّه تعالي الّذي لا يغفر الذنب إلا هو ، والّذي يحب التّوّابين والمستغفرين ، سوف يجد اللّه سبحانه وتعالي هو الغفور الّذي يترك المؤاخذة علي الذّنب ويستره ، والّذي وسعت رحمته كلّ شئ . وسبق أن لاحظنا بشأن القسم السّابق في أثناء الحديث عن الهجرة والحثّ عليها وعن ثواب المهاجرين أن السّياق رتّب العفو والمغفرة والرّحمة في نَسَق ، لأنّ العفو يقف عند ترك المؤاخذة علي الذّنب ، ولأن المغفرة تشمل العفو وتتجاوزه إلي ستر الذّنب ، ولأنّ الرّحمة تشمل المغفرة وتتجاوزها إلي الإحسان بتبديل السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً بنصّ القرآن الكريم . إن هذه المعاني نتبيّنها في هذه الآية الكريمة وللّه وحده لا شريك له الحمد والمنّة . وإذا كانت المغفرة والرّحمة تصبغان الآية الكريمة بلونيهما فإن التّرهيب يصبغ الآية الكريمة التّالية فإلي :

الآية رقم (١١١)

قال تعالي :

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾

جرت العادة بأن يكون الكسب بمعني الرّبح في حال التوفيق والنّجاح ، والآية الكريمة تستعمل الكسب في حال الخذلان والفشل ، وكأنّ ذلك امتدادٌللتوبيخ الّذي هو من نصيب المنافقين والمدافعين عنهم بالباطل . وإن الآية الكريمة تستعمل الكسب في حق الإثم والذّنب ، وتقرّر أنّ من يكسب إثماً فإنّما يكسبه علي نفسه. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل حرف الجرّ علي الدّالّ علي الاستعلاء ، وكان الإثم حملٌ ثقيل يحمله علي ظهره ، وبذلك يتأكدّ الكسب بمعنى الخسارة وليس بمعني الرّبح بعد أن تبيّن أنّه بمعني الخسارة لاقترانه بالإثم .

وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ اللّه سبحانه وتعالي «عليم » هكذا في صيغة المبالغة ، فلا يخفي علي اللّه تعالي شئ في السّماوات ولا في الأرض ، ومن ذلك من يكسب السّيئة أو الحسنة . كما تقرّر أن اللّه سبحانه وتعالي حكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه وتقديراته وفي كلّ شئ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة «يكسب» فى حقّ الإثم . وكأنّ الآثم يندرج فى الأخسرين أعمالاً الّذين عناهم قوله تعالى[1] : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الّذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا﴾ كما يلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة « يعمل » فى حقّ السّوء . وكأن السّوء يرتبط بالعمل ، وكأنّ الإثم يرتبط بالقول والعمل معا. وسوف نتبيّن فى الآية الكريمة التّالية ارتباط الإثم بالعمل .

وإذا كان عمل السّوء وظلم النّفس موطّئا للحديث عن كسب الإثم ، فإنّ كسب الإثم موطّئٌ للجمع بين كسب الخطيئة والإثم معا . وإلى ذلك أشارت .

(١) سورة الكهف ١٠٣ ، ١٠٤ .

الآية رقم (١١٢)

قال تعالى :

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

من البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث فى المقام الأوّل عن طعمة بن أبيرق الّذى سرق الدّرع وكسب الإثم ثمّ رمى به بريئًا من اليهود أو من العرب .

فما معنى الخطيئة ؟ نبّه العلماء (١) إلى أنّ الخطيئة بمعنى السيّئة وإلى أنّها ذات علاقةٍ بنوعٍ من الخطأ غير المقصود يترتّب على القيام بعملٍ مشروع أو غير مشروع، غير محظورٍ أو محظور . فعلى سبيل المثال الصّيد عملٌ غير محظور، فإذا أخطأ الصّائد الهدف فلم يصبه وأصاب إنساناً كان عمله خطيئةً أو خطأً ترتّب على عملٍ غير محظور . ومثال المحظور شرب الخمر . إنّ ما يترتّب على شرب الخمر من آثام يعتبر خطيئة . وهذه الخطيئة مترتّبة على أمرٍ محظور وغير مشروع وهو شرب الخمر. ومن البيّن أنّ الخطيئة تعدّت إلى المظلوم الّذى تأذّى بها . ومن البيّن كذلك أنّ الآية الكريمة تجمع بين الخطيئة والإثم . وقد عرفنا أنّ الخطيئة متعدّيةٌ بطبعها ، فهى ضربٌ من الخطأ يُرتكب فى حقّ الآخرين . أمّا الإثم الّذى عرفنا أنّه يجمع بين القول والعمل فإنّ المراد به فى الآية بناءً على سبب النّزول العمل الّذى قام به بنو أبيرق فى سبيل درء التّهمة عنهم وإلصاقها بالبرئ . وقد سخّر بنو أبيرق كلّ الوسائل من أجل تلك الغاية الخسيسة ، بما فى ذلك وسيلة القول بطبيعة الحال . وكأنّ هذا النّوع من الإثم الّذى تشير إليه الآية الكريمة والّذى تجاوز أصحابه وتعدّاهم إلى آخرين مظلومين، يشترك مع الخطيئة فى كون كلٍّ من الخطيئة والإثم متعدّيًا إلى آخرين. وهذا التّعدى نوعٌ من الرّباط بين الذّنبين.

---

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهانى « خطأ » ١٥١ .

وانظر إلى عملية الرّمي فى حقّ الإثم : ﴿ثمّ يرم به بريئا﴾ والمعروف أنّ هذه العمليّة بحاجة إلى نيّةٍ مبيّتة وعزم وتصميم كى يصيب الإثم البريءَ ولا يخطئه.

ومع اشتراك الخطيئة والإثم فى عمليّة التّعدّى واشتراكهما هنا فى إصابة البريءِ فإنّ الإصابة فى حقّ الخطيئة غير متعمَّدة بينما هى في حقّ الإثم هنا متعمّدة . وبسبب هذا الاختلاف الجوهرىّ بين طبيعة الذّنبين عاد فى الآية الكريمة الضّمير مفردًا على الإثم وذلك فى القول : ﴿ثمّ يرم به بريئا﴾ وحينما يكون ثمة ذنبان أحدهما عن غير قصد وآخرهما عن قصد ، فمن الطّبيعى أن يكون الذّنب عن قصد أكثر جرمًا ، ولهذا عاد الضّمير على الإثم ، ولهذا جاءت صيغة افتعل والبهتان ، كما جاءت صفة الإثم بأنه مبين . قال تعالى : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثمّ يرم به بريئاً فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا ﴾ .

إنّ ثمّة فرقاً بين صيغة فعل مثل حمل وبين صيغة افتعل مثل احتمل ولهذا قال النابغة :

فَحَمَلْتُ برّةَ واحتملتَ فَجارِ

عبّر عن البرّة بالحَمْل ، وعن الفَجْرة بالاحتمال ، لأن حمل البرّة بالإضافة إلى احتمال الفجرة أمرٌ يسير ومستصغر ، ومثله قول اللّه عزّ اسمه : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت [1] إنّ جملة كسب هى الّتى جاءت فى حقّ الحسنات لأنّ كسب الحسنات أمرٌ سهلٌ بفضل اللّه تعالى ، بينما جاءت جملة اكتسب فى حقّ السّيّئات ، دليلا على الصّعوبات والمشقّات الّتى يعانيها من يكتسب السّيّئات ، ابتداءً بصعوبة الاعتداء على حدود اللّه تعالى ، وانتهاءً بالحسرة الّتى تملأ نفس مرتكب الذّنب ، والألم الّذى يعصر قلبه ، وبخاصّة أصحاب النّفوس الكبيرة الّذين استزلهم الشّيطان فزلّت بهم النّعل .

---

(١) لسان العرب «حمل».

وحينما تجئ جملة «احتمل» على وزن اكتسب فى حقّ من يرمى بريئًا بالإثم بينما تجئ جملة كسب فى حقّ مرتكب الخطيئة يصحّ أن نفهم أنّ فى التّحوّل من الخطيئة إلى الإثم تدرّجاً من الذّنب إلى الذّنب الآخر الّذى يكبره، ومن الأدلّة على ذلك مجئ صيغة فَعَل مع الخطيئة ومجئ صيغة افتعل مع الإثم الّذى يَرْمِى به الآثم بريئًا.

وما معنى البهتان الّذى احتمله رامى البرئ بالإثم وآب به وباء ؟ إنّه الكذب الّذى يدهش من أجله البرئ ويتحيّر ويَفْغَر بسببه فاه ويصيبه التبلّد ويعجز عن التّجلّد(١).

ولّما كان المذنب قد ارتكب إثمًا ، وكان قد رمى بريئًا بذلك الإثم ، فقد احتمل ذلك الرّامى واكتسب إثمًا مبينا . إنّ ارتكاب الإثم يستحق معه الآثم أن يقال عنه إنّه ارتكب إثمًا ، فإذا اتّهم بذلك الإثم بريئًا فذلك معناه أنّه احتمل بهتاناً من زاوية المظلوم ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿فقد احتمل بهتانًا﴾ كما أنه احتمل إثمًا مبينًا بسبب جراءته على اللّه تعالى وعلى عباده جلّ وعلا .

وبما أنّ الملابسات شائكة ، ومن الّذين نالهم أذاها المصطفى ﷺ لذا فإنّ الآية الكريمة التالية تشير إلى فضل اللّه تعالى العظيم على هذا الرّسول الكريم وتعليمه عليه الصّلاة والسّلام ما لم يكن يعلم فإلى :

الآية رقم (١١٣)

قال تعالى :

وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

(١) انظر هنا المفردات للراغب الأصفهانى ، بهت ، ٦٣ .

تقرّر الآية الكريمة أنه لولا فضل اللّه تعالى على المصطفى ﷺ ، وليس لفضله جلّ وعلا حدود ، ولولا رحمة اللّه بالمصطفى ﷺ ، وليس لرحتمه جلّ وعلا الواسعةنهاية ، ومن مظاهر فضل اللّه تعالى عليه ﷺ نعم النّبوّة والرّسالة والوحي ، ومن مظاهر رحمة اللّه تعالى به ﷺ عصمة اللّه تعالى لحبيبه ﷺ من النّاس وتأييده فى كلّ الأمور وتسديده ، إنّه لولا فضل اللّه تعالى ورحمته لهمّت طائفةٌ من المنافقين أن يضلّوك أيّها الرّسول الكريم وينحرفوا بك عن الصّراط المستقيم . إنّ بنى أبيرق وقومهم مثلاً حاولوا أن يضلّوه ﷺ بتبرئة السّارق وإلصاق التّمة بالبرئ فعصمه اللّه تعالى منهم.

إنّ هؤلاء المنافقين وأمثالهم حينما يريدون أن يضلّوا المصطفى ﷺ الّذى عصمه اللّه تعالى من النّاس هل هم فى الحقيقة يضلّون أنفسهم أم يضلّونه عليه الصلاة والسلام ؟ إنّهم بنصّ الآية الكريمة إنّما يضلّون أنفسهم : ﴿ وما يضلّون إلا أنفسهم﴾ لأنّ وبال محاولتهم الإضلال عائدٌ عليهم وحدهم ، فاللّه سبحانه وتعالى قد عصم حبيبه ص من كلّ زلل بينما هم يتولاهم الشّيطان الرّجيم.

وإنّ هؤلاء المنافقين الّذين يهمّون بإضلاله عليه الصّلاة والسلام عن الصّواب هل هم فى الحقيقة يستطيعون أن يضرّوه عليه الصّلاة والسّلام فى شئ؟ إنّهم بنصّ الآية الكريمة لن يستطيعوا أن يضلّوه عليه الصّلاة والسلام فى شئ : ﴿ وما يضرّونك من شئ﴾ وقياساً على كون الضّلال عائداً عليهم كذلك الضّرر عائدٌ عليهم وحدهم.

وإنّ الفضل والرّحمة اللّذين جاءت الإشارة إليهما فى صدر الآية الكريمة بإيجاز يكون تبيينهما وتفصيلهما فى القول : ﴿ وأنزل اللّه عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ إنّ إنزال القرآن الكريم والسّنّة النّبوية المطهّرة يعنيان فضل اللّه تعالى على المصطفى ﷺ بنعمتى النّبوة والرّسالة . وإنّ تعليم اللّه حبيبه ص ما لم يعلم عن طريق الوحى وإنباءه بالغيب كما هو الحال فى شأن بنى أبيرق، من مظاهررحمه اللّه تعالى بالرّسول الكريم إذ وقفه عليه الصّلاة والسّلام على حقيقة كلّ من البرئ والمتّهم.

وإنّ الفضل الّذى ألمحت إليه الآية الكريمة فى صدرها قد تلا فى الآية الكريمة تفصيلٌ له فبدا الفضل عظيماً حقّاً، وهذا هو الّذى أفصحت به الآية الكريمة فى آخرها، فقد جاء خطابًا للمصطفى ﷺ القول: ﴿وكان فضل اللّه عليك عظيمًا﴾.

ومن البيّن مجئ لفظ الجلالة « اللّه » مرّات ثلاثا ، بما فى ذلك التّذييل الخاصّ به عليه الصّلاة والسّلام ﴿ وكان فضل اللّه عليك عظيمًا ﴾ والمعروف أن لفظ الجلالة «اللّه» يستعمل فى مواقف العموم ، وذلك دليلٌ على أنّ الفضل والنّعم قد نَظَرْت إلى كلّ ذلك الآية الكريمة من زاوية كونها كلها نعمةً من اللّه تعالى مسداةً ورحمة مهداة إلى العالمين أجمعين.

وحينما نبحث عن الصّفة الّتى تغلب على المنافقين محور هذه المجموعة من الآيات الكريمات فإن نتبيّن أنّها صفة النّجوى والكلام فيما بينهم سراً وفى جنح الظلام حينما يبيّتون ما لا يرضى اللّه تعالى عنه من القول والفعل . وإنّ الآية الكريمة التّالية تحدّثت فى هذه النّجوى وبيّنت ما فيه خيرٌ منها وما فيه شرّ فإلى :

الآية رقم (١١٤)

قال تعالى :

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنه لا خير فى كثير من نجوى النّاس، ولا نفع من خلوصهم واعتزالهم متناجين وفيهم قوم طعمة المنافقون . وتستثنى الآية الكريمة أولئك الّذين يأمرون بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين عباد اللّه تعالى . أمّا

الصّدقة فالمعروف أنّ إخفاءها أفضل من إبدائها ، وبذلك يكون انسجامٌ وموافقةٌ بين التّناجى وبين الصّدقة الّتى يحسن إخفاؤها . وكأن التّناغم بين التّناجى وإخفاء الصّدقة السّبب وراء تقديم الصّدقة فى الذّكر ، هذا إلى سهولة الصّدقة وإمكان الإكثار منها ولو كانت قليلة . وقد قال تعالى(١) : ﴿ إن تبدوا الصّدقات فنعّما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفّر عنكم من سيّئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ ثبت فى الصّحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ص : سبعةٌ يظلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظل إلا ظلّه ، إمامٌ عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ قلبه معلّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتّى يرجع إليه ، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال : إنّى أخاف الله ربّ العالمين ، ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه(٢) .

وأمّا المعروف فالمراد به المعروف شرعاً وعقلاً . ومن البيّن أنّ دائرة المعروف أكبر من دائرة الصّدقة ، لأنّ دائرة الصّدقة تقتصر على الفئات الثّمان الّتى عيّنها القرآن الكريم من المحتاجين والعاملين عليها ومن إلى هؤلاء ، أمّا دائرة المعروف فإنّها تشمل من تصحّ عليه الصّدقة ومن لا تصحّ .

وأمّا الإصلاح بين النّاس والعمل على صلاح ذات البيّن بين المتخاصمين فإنّ دائرتهما أكبر الدّوائر الثّلاث لأنّها تشمل كلّ النّاس بلا استثناء.

وإذا كانت الصّدقة أكثر وروداً من الأمر بالمعروف فإن الأمر بالمعروف أكثر وروداً من إصلاح ذات البين . وهكذا يتبيّن أنّ ترتيب هذه العناصر الثّلاثة راعى كثرة الحاجة الّتى تقلّ اضطراداً ، وكبر الدائرة الّذى يزداد تباعاً.

ومع أنّ الخفاء بشأن أولى هذه العناصر الثّلاثة هو الأولى وقد تبيّنا ذلك من القرآن الكريم والحديث الشّريف فى حقّ الصّدقة ، فإنّ الجهر بالصّدقة

(١) سورة البقرة : ٢٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢.

لحكمة جليلة كإغراء الآخرين بها ربّما كان أحياناً هو الأفضل . وإنّ الأمر بالمعروف وإصلاح ذات البيّن ربّما كان حظّهما من كلّ من السّرّ والجهر موفوراً.

وإنّ هذه الأمور الثّلاثة وكلّ أمرٍ من أمور المسلم لله ربّ العالمين ، سواءٌ كان الأفضل فى حقّها السّرّ أو الجهر ، يجب أن يريد بها المسلم وجه الله تعالى وليس الرّياء والسّمعة وحسن الأحدوثة . والمعروف أنّ ربّ العزة لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صالحًا وأريد به وجهه جلّ وعلا وحده لا شريك له . أمّا مقياس الصّلاح فهو انسجام العمل الصّالح مع تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . وإنّ الآية الكريمة فى عجزها تقرّر هذه المعانى السّامية قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيمًا ﴾ إنّ من يأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس ويريد بعمله وجه الله تعالى ويبتغى مرضاته جلّ وعلا فسوف يؤتيه جلّ وعلا يوم القيامة أجراً عظيمًا

وإذا كان الأجر العظيم هو الجنّة، وما أطيب الحياة فيها ، فإنّ الحياة الطيّبة تكون كذلك فى الحياة الدّنيا وقد قال تعالى[1] : ﴿ من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

وحينما نقارن بين أثر كلّ من هذه الأعمال الثلاثة المتكاملة فى المجتمع نتبيّن أن الصّدقة تتّسع بها دائرة المحبّة وتضيق بها الفجوة بين الفقراء والأغنياء وأنّ الأمر بالمعروف وإسداء المعروف ممّا يقوى علائق المحبّة بين مستقبلى المعروف وفاعليه ، وأنّ إصلاح ذات البيّن يزيل الجفوة بين أفراد المجتمع فتعود المياه إلى مجاريها والصّفاء إلى حالته الأولى ، فتحل المحبّة والمودّة بدلاً من العداوة والبغضاء . ومن البيّن أهميّة صلاح ذات البيْن وقد قال تعالى[2] : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرّسول فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

(١) سورة النحل : ٩٧ . (٢) سورة الأنفال : ١ .

وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ وروى الإمام أحمد عن أبى الدّرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّيام و الصّلاة والصّدقة ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البيّن ، قال : وفساد ذات البيّن هى الحالقة[1] أى الّتى شأنها أن تحلق أى تُهلك وتستأصل الدّين كما تستأصل الموسى الشّعر[2].

ولّما فضح الله سبحانه وتعالى طعمة بن أبيرق وقومه من المنافقين أبى طعمة أن يكون من التّائبين ولحق بالمشركين من عبدة الأوثان بمكّة مرتداً مفارقًا لرسول الله ﷺ ودينه فنزلت الآية الكريمة التالية[3] فإلى :

الآية رقم (١١٥)

قال تعالى :

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يشاقق الرّسول ﷺ ويخالفه ويكون فى شقٍّ غير شقّه عليه الصّلاة والسّلام وطريقٍ غير طريقه، من بعد ما تبيّن له الهدى واستنار له سبيل الحقّ ، ويتّبع غير سبيل المؤمنين ، ويسير فى ركاب الكافرين، ويكون أداةً طيّعةً فى يد الشيّطان ، نولّه ما تولّى ونجعل وليّه وناصره ما اتّخذه وليّاً واستنصره من دون الله تعالى ، ونزيده إلى عماه عمى ، وإلى ضلاله ضلالا .

أمّا وقد اتّخذ هذا المخالف للرّسول ﷺ الأوثان والأصنام والشيّاطين

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٤. (٢) لسان العرب «حلق».

أولياءه فانحرفوا به عن الصّراط المستقيم وقادوه إلى مهاوى الرّدى ، فإنّ مصيره يوم القيامة بئس المصير بأن يَصْلَى جهنّم ويحرقه نارها.

ومن البيّن أنّ هذا المخالف قد جاءته دعوة المصطفى ﷺ ووعاها ، وثبت له أنّها حقّ ، وتبيّن له نور الإسلام ، وهَدْيِ الإيمان ، فأصرّ على عدم الإيمان وعلى عدم اتّباع المصطفى ﷺ ، وعدم اتّباع سبيل المؤمنين ، أى اتّباع سبيل الكافرين عن عمد وسابق إصرار ، لكلّ ذلك هو استحقّ أن يزيده اللّه تعالى عمًى إلى عماه وأن يصلى نار جهنّم وبئس المصير .

أمّا وقد ارتكب طعمة الذّنب الّذى لا يغفره اللّه تعالى وهو الإشراك مع اللّه تعالى سواه فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية هذه الحقيقة فإلى :

الآية رقم (١١٦)

قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا

وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الثّامنة والأربعين من هذه السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ إنّ اللّه لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك باللّه فقد افترى إثمًا عظيمًا ﴾ ومن البيّن أنّ الاختلاف بين الآيتين الكريمتين ينحصر فى التذييل . وإذا كان معنى التّذييل : ﴿ ومن يشرك باللّه فقد افترى إثمًا عظيمًا ﴾ أنّ من يشرك مع اللّه تعالى غيره ولا يفرده جلّ وعلا بالعبادة فقد افترى إثمًا عظيمًا وارتكب جرمًا كبيرًا فى حقّ الذّات العليّة التى لها وحدها دون سواها الخلق والأمر ، فإنّ معنى التّذييل : ﴿ ومن يشرك باللّه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ أنّ من يشرك مع اللّه تعالى غيره فقد ضلّ هذا المشرك ضلالاً بعيداً عن الحقّ وخرج عن الصراط المستقيم خروجاً أكيدا . ومن البيّن أنّ التّذييل فى الآية الكريمة السّابقة يبيّن الفرية العظمى الّتى ارتكبها المشرك فى حقّ الذّات العليّة ، وعليه فالتّذييل يبيّن حقّ

الله تعالى الّذى ضيّعه المشرك ، ومن البيّن كذلك أنّ التّذييل هنا يبيّن ما آل إليه أمر هذا المشرك من ضلال بعيد عن الحقّ . وعليه فالتّذييل يبيّن الضّلال الأكيد الّذى انغمس فيه المشرك . إنّ على المشرك أن يعلم يقيناً أنّ مصيره النّار وبئس القرار إن مات على كفره ولم يتب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ولم يؤمن ويعمل صالحا .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة السّابقة تحدّثت عن واحد من هؤلاء المشركين الّذين شاقّوا الرّسول ﷺ واتّبعوا سبيلاً غير سبيل المؤمنين . فكانت النّتيجة كما بيّنت هذه الآية الكريمة اللاّحقة أن الأمر انتهى بالقوم إلى أحطّ الدّركات ، فارتكبوا الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى . وهو جلّ وعلا يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولا يُسْأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يُسْألون .

ولمّا كان كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين ولحق بهم من المرتّدين قد تورّطوا فى التّناقض وكانوا أداة طيّعة فى يد الشّيطان الرّجيم العدوّ المبين الّذى غرّ بهم ، فقد تحدّثت الآيات الكريمات التّاليات فى هذه المعانى وفى مصير هؤلاء المشركين السّيئ فى جهنّم فإلى :

الآيات رقم (١١٧ - ١١٩)

قال تعالى :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ المشركين الّذين لحق بهم طعمة فى مكّة المكرّمة ما يدعون من دون الله تعالى إلا إناثًا ، وما يعبدون من دونه جلّ وعلا

إلا أوثاناً خلعوا عليها أسماء الإناث فتورّطوا فى الشّرك من ناحية ، وفى التّناقض من ناحية أخرى، لأنّهم يحبّون الذّكور ويبغضون الإناث ويجعلون الملائكة إناثاً ويزعمون أنّهم بنات اللّه تعالى : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواهم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ويخلعون على أوثانهم أسماء الإناث وليس أسماء الذّكور الّتى يحبون . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ هؤلاء المشركين ما يدعون ويطيعون إلاّ شيطاناً مريداً ، يعنى متمرّداً على اللّه فى خلافه فيما أمره به وفيما نهاه عنه(١) .

وهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف(٢) قال تعالى : ﴿ وللّه الأسماء الحُسنَى فادعوه بها وذروا الّذى يُلْحِدون فى أسمائه سيُجْزَوْن ما كانوا يعملون ﴾ تشير إلى تسمية مشركى مكّة الأصنام بأسماء مالوا فيها عن الحقّ فى أسمائه جلّ وعلا ، وألحدوا فيها ، وعدلوا عن القصد ، وانحرفوا وجاروا(٣) حيث اشتقّوا منها أسماءً لآلهتهم كاللاّت من اللّه والعُزّى من العزيز ومناة من المنّان(٤) ومن البيّن أنّ هذه الأسماء المشتقّة من أسماء اللّه تعالى الحُسنى أسماء لإناث وقد تعالى : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثًا ﴾ .

ويبدو تناقض المشركين جليّاً حينما يحبّون لأنفسهم الذّكور مثلاً ويئدون الإناث اللاّتى لا يحبون ويجعلون للّه تعالى الإناث اللاّتى يكرهون فيزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه تعالى . وإلى هذا الشّرك والتّناقض أشار القرآن الكريم فى العديد من المواضع ، ومن ذلك قوله تعالى(٥) : ﴿ ويجعلون للّه البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً هو

---

(١) تفسير الطبرى ٥/ ١٨٠ .

(٢) الآية : ١٨٠ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩ ومفردات الرّاغب الأصفهانى «لحد» ٤٤٨ .

(٤) انظر الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني «لحد» ٤٤٨ وتفسير الطّبرى ٩/ ٩١ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٩ وتفسير القرطبى ٢٧٦٤ .

(٥) سورة النحل ٥٧ - ٥٩ .

لعظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هون أم يدسّه فى التّراب . ألا ساء ما يحكمون ﴾ وقوله تعالى(١) : ﴿ ويجعلون للّه ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أنّ لهم الحُسْنى . لا جرم أنّ لهم النّار وأنّهم مُفْرَطون﴾.

والمعنى أنّ المشركين يجعلون للّه تعالى ما يكرهون لأنفسهم من البنات فيزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه تعالى وتصف ألسنتهم الكذب بأنّ لهم الجنّة ، ولا محالة أنّ لهم النّار يوم القيامة وأنّهم مقدّمون إليها منسيّون فيها ومضيّعون.

وفى مقابل تمرّد اللّعين على اللّه تعالى وخروجه على طاعته جلّ وعلا وابتعاده عن الصّراط المستقيم لعنه اللّه تعالى كما جاء فى الآية الكريمة التّالية ﴿لعنه اللّه﴾ بمعنى طرده جلّ وعلا وأبعده من رحمته .

ويستمرّ السّياق بعد ذلك فى تبيين عداوة اللّعين لآدم عليه السلام وذرّيته، والمعروف أنّ تلك العداوة كانت بدافع الحسد لآدم عليه السّلام الّذى فضّله اللّه تعالى بنعمة العلم على الملائكة الّتى تعبد اللّه تعالى والّتى لا تعصى اللّه تعالى ما أمرها وتفعل ما تؤمر به. وقد أمر اللّه تعالى الملائكة بالسّجود لآدم عليه السّلام سجود تحيّة وتكرمة ففعلت إلا إبليس الّذى كان من الجن والّذى عصى أمر ربّه والّذى تكبّر وأبى أن يكون من السّاجدين ، فطرده اللّه تعالى وأبعده من رحمته .

إنّ السّياق ليذكّر بما جرى على لسان اللّعين فى خطابه ربّه جلّ وعلا من تهديد لآدم عليه السّلام وذرّيته . إنّ اللّعين يخاطب ربّه جلّ وعلا بأنّه ، أى اللّعين ، سيتّخذ من عباد اللّه تعالى من بنى آدم نصيبًا مفروضًا ومعلوماً . ويلاحظ مجئ لام القسم ونون التّوكيد على لسان اللّعين فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وقال لأتّخذنّ من عبادك نصيباً مفروضًا﴾ .

ومع أنّ هدف اللّعين من اتّخاذ النّصيب المعلوم من آدم عليه السّلام وذرّيته معروفٌ وهو الإضلال والإغواء ، فقد أخرج أبوينا من الجنّة كما بيّن

(٢) سورة النحل ٢٦ .

ذلك القرآن الكريم ، فإنّ الآية الكريمة تبيّن بعض ما جرى على لسان اللّعين من تهديد بالإضلال ووعيد بالإغواء . قال تعالى : ﴿ ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق اللّه ﴾ .

وعلى غرار لام القسم ونون التّوكيد فى القول : « لأتّخذن » تجئ اللاّم ونون التّوكيد كلّ مرّة يتهدّد فيها اللّعين ويتوعّد بنى آدم : ﴿ ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق اللّه ﴾ .

ويبدأ اللّعين بذكر أوّل أعماله وأقرب أعماله وأكثر أعماله وهو الإضلال: «ولأضلّنّهم» وحينما نقول إنّ اللّعين يبدأ بأوّل أعماله فكأن القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ لأتّخذنّ من عبادك نصيباً مفروضًا ﴾ يعنى به اللّعين أنّ نصيبه المعلوم من بنى آدم الّذى ظنّ أنّه سيكون حظّه فى مثل القول على لسانه فى سورة الحجر(١) مثلاً، قال تعالى : ﴿ قال ربّ بما أغويتنى لأزيّننّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ كأنّ القول فى الآية الكريمة السّابقة يعنى أنّ ذلك النّصيب المفروض من عباد اللّه تعالى والحظّ المعلوم منهم قد فَعَلَ به اللّعين كلّ الأفاعيل ، وها هو ذا اللّعين يذكر طرفًا من أهمّ أباطيله وأضاليله(٢) ويبدأ بالإضلال ويتحدّث فى لغة المصمّم على ما يقول المعتدّ بذاته الواثق من تحقيق غرضه الخسيس.

ويترتّب على إضلال اللّعين توزيع الأمانى على هؤلاء الضّالّين : ﴿ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ﴾ إنّ من أضلّه اللّعين فأشرك على غرار كفّار مكّة ومن لحق بهم من المشركين والمرتدّين يمنّيهم اللّعين بأنّه ليس ثمّة بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب. وإنّ مَنْ قتل نفسًا وأزهقها ظلماً وعدواناً يمنّيه اللّعين بالفرار من القتل بعد أن زيّن له قتل النّفس البريئة . وقل الشئ نفسه عن الإغراء بالزّنا والنّجاة من الرّجم أو الجلد ، وبالسّرقة والنّجاة من القطع وهكذا . وقد جاء فى سورة الإسراء(٣) قوله تعالى : ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإنّ

(١) الآية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الأضاليل جمع الأضلولة بضمّ الهمزة ضدّ الهدى .

(٣) الآيات : ٦٣ - ٦٦ .